مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

محمد جبريل

سوق العيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
١٩٩٧

مختارات فصول
سلسلة ادبية شهرية
قصص
العدد (١١٨)
سبتمبر ١٩٩٦

رئيس مجلس الإدارة
ا. د. سمير سرحان

رئيس التحرير
سـامى خشبـة

نائب رئيس التحرير
إبراهيم أصلان

مدير التحرير
حسـن سـرور

المشرف الفنى
صبرى عبدالواحد

الغلاف للفنان
يوسف شاكر

ســـوق العيـــد

- ١ -

صحوت على دقات عالية من الناحيـة المطلة على مسجد سيدى على تمراز . بدت مختلفة عن هتافات طلبة المعهد الدينى ضد الملك وابراهيم عبد الهـادى ، ومعاركهم مع عسـاكر البوليس ..

فتحت النافذة ، فدخل ضوء النهار ، والأصوات العالية لشواكيش وفؤوس وأوامر ونداءات . ميدان الخمس فوانيس على غير ما ألفت رؤيته . لا مظاهرات ولا خناقات ولا مشاجرات بين الطلبـة والبوليس ، وان ابتعدت السيارات وعربات اليد عن أماكنها فى الساحة المواجهـة لشارع سراى محسن باشا . حلت بدلا منها أخشـاب ومراجيح مفككة وخيام وأقمشـة سرادقات وصناديق وكراسى وترابيزات وسلالم ..

قال أبى من فوق رأسى :

— انهم يعدون لسوق العيد ..

— ٢ —

كان السوق فى بداياته . الألعاب والمراجيح منكوكة ، والعمال مشغولين بتركيب الخيام والسرادقات ونصبات الشاى ..

طالت وقفة شقيقتى أمام صندوق الدنيا ، بقائميه القصيرين . والستارة الملونة ، والنافذتين المدورتين ..

قلت :

— تريدين الفرجة ؟ ..

قالت أمل بنبرة متوسلة :

— يا ريت ! ..

دفعت للرجل الطويل ذى الجلباب ، والرأس الأصلع ، والشارب المتهدل على الشفتين . وجلسنا على الدكة ..

— ٣ —

حل العيد ..

امتد الحصير فى الساحة المقابلة لمسجد سيدى على تمراز ، الى جوانب ميدان الخمس فوانيس فى تقاطعاته مع شارعى

اسماعيل صبرى ورأس التين والشـــارع الخلفى ، ورصيف البيوت الثلاثة المتساندة فى مواجهة الباب الأمامى للمسجد ، وعلت أصوات المصلين :

الله أكبر كبيرا •• والحمد لله كثيرا •• وسبحان الله بكرة وأصـــيلا ••

صحبت أمل الى سوق العيد • شاهدنا الأراجوز ، وركبنا المراجيح ، وضربنا النشان ، واستمعنا الى الشـــاعر الشعبى وأغنيـــات العوالم • وكنا نجلس ــ فى كل مرة ــ على دكة صندوق الدنيا ، نتابع الصور ورواية عم حماد •• أتوقع الصورة التالية ، وأستكمل ــ بصوتى ــ ما أهمل عم حماد روايته ••

ــ ٤ ــ

ألفنا الجلوس ــ أمل وأنا ــ على الدكة • يسدل الرجل الستارة • نخلو الى الصـــور المتتالية يتابعها صوته ، يروى حكايات الهلالى والزناتى وسيف بن ذى يزن والسفيرة عزيزة وذات الهمة وعلى الزيبق • عرفنا تفصيلات الصور والروايات المتكررة لعم حماد • وكنا نجلس ــ أمام الصندوق ــ مرتين ، وربما ثلاث مرات ، فى اليوم الواحد ••

فى لحظة أو أقل ، بدا لى ان الصورة أمامى تتحرك . على الزيبق قيد الكلبى مقدم الشرطة ، وانهال عليـه بعصـا رفيعة . لم تعد العصا كما كانت ، لكنها لامست الجسم بقوة ، وعلت ..

فركت عينى ، وأعدت النظر ..

عاد المشهد الى سكونه . ثم دارت يد عم حماد . المقدم دليلة تشير بيدها الى جنود ، وروى عم حماد : هـذه دليلة تصدر أوامرها بأن يقلبوا المدينـة بحثا عن على الزيبق ..

قلت لأمل ونحن نجاوز ميدان الخمس فوانيس :

ــ رأيت الصورة تتحرك ..

قطبت حاجبيها متسائلة :

ــ أيـة صـورة ؟ ..

حاولت أن أعبر بيدى :

ــ على الزيبق يضرب الكلبى بعصاه ..

هزت رأسها فى عدم فهم ، وواصلت السير ..

- ٦ -

عندما حط عم حماد الصندوق على الأرض ــ ضحى اليوم التالى ــ كنت أسبق من أمل فى الجلوس على الدكة • انتظر الرجل حتى التصقت بى أمل أمام النافذتين المدورتين • غطى رأسينا بالملاءة الملونة ، ودارت يده بالصور ••

قــلت :

ــ هذه حكاية السفيرة عزيزة •• أريد على الزيبق ••

ضحك الرجل بجانب أذنى ، وقال :

ــ سأفرجك على الحكايتين ••

- ٧ -

تجمعت مشاعرى فى عينى ، وأنا أتأمل حكاية على الزيبق من بدايتها • أنتظر المشهد الذى مضى ــ فى المرة المــاضية ــ كأنه الحــلم ، أو الومضــة ، فلم أســتطع تبين ان كان قد حدث فعلا ••

لكزت أمل بسرفقى وأنا أهتف :

ــ انظــرى ••

وأزحت الستارة عن رأسى ، واتجهت الى عينيها : هــل رأت ما رأيت ؟ ..

قــالت أمل :

ــ الصورة كما هى ..

ــ الزيبق يضرب الكلبى ..

ــ رأيته .. لكن الزيبق لم يتحرك ..

ــ ٨ ــ

فى المســاء ، قلت لأبى حين أخذ مكانه وســطنا حول الطبليــة :

ــ رأيت على الزيبق يتحرك فى الصندوق ..

قال وهو يطمئن الى جلسته :

ــ أى صــندوق ؟ ..

ــ صندوق الدنيــا ..

اتجه الى بنظرة مستغربة :

ــ المفروض أن الرجل يحرك الصور ..

علا صــوتى بتأكيد :

ـ لا •• تحركت الصورة من نفسها •• علت يده بالعصا، ونزلت على جسم الكلبى ••

ـ ٩ ـ

كنت قد تحايلت على أمل ، فصحبتنى الى الجلسة أمام الصندوق • أفزعها فى الصباح التفاف عساكر البوليس حول جرسون النصبة ، أول السوق • تناثر الموقد والجردل والبراد والأكواب ، وتكوم الرجل فى نفسه ، يتقى ضرباتهم المتلاحقة بالعصى ، وبالأيدى والأقدام • صمتت أمل عن التعليق ، ولم تعد تلقى الأسئلة ••

عندما استغرقت فى تبين يد الزيبق ، ترتفع وتنزل على جسم الكلبى ، لكزتنى أمل وهى تصرخ :

ـ انها تتحرك ••

أزحت الستارة ، واتجهت اليها بعينين متسائلتين ••

قـالت :

ـ ليست كبقية الصور ••

أردفت فى تأكيد :

ـ الزيبق ضرب الكلبى ••

قلت بلهفـة :

ــ هـل رأيت ؟ ..

ــ نعم .. نزلت العصا على الجسم المقيد ..

ــ ١٠ ــ

شغلنى السؤال ــ فى عودتنا الى البيت ــ هل يصـدق أبى ما رأته أمل ؟ .. وهل يصدق ــ هذه المرة ــ ما رأيته ؟ ..

كانت سوق العيد فى نهاياتها . الرجـال يفكون الخيـام والسرادقـات والمراجيـح ، ويلمون الكراسى والترابيزات ، ويقذفون بالمخلفات فى الميدان الوسع ..

الشرق الأوسط ١٩٩١/٩/١٦

اكتوبـر ١٩٩٤/١/١٦

فلمـــا صحونـــا

مع أنى اذكر ساعة رؤيتى له للمرة الأولى : ظلال الغروب تعلو أسطح البنايات ، وتغيب عن الطريق ، فتضفى على الناس والأشياء غلالة رمادية • تهدأ الأصوات بالظلمة التى حلت فى الدكاكين ، وداخل البيوت • ترجىء الاضـــاءة ، فلا تغرى الذباب بالدخول ••

مع ذلك ، فان المكان الذى رأيته فيه يغيب عن بالى ، فلا أذكره على وجه التحديد • ربما الجــدار الملاصق للباب الخلفى بمسجد ســيدى على تمراز ، أو الزقـــاق المفضى الى شارع الميدان ، أو ناصية شارع الموازينى • صوته المتخاذل ، والحقيبة التى هدت حيلى ، وتعجلى العودة الى البيت •• ذلك كله ، أنسانى حتى الصـــورة التى رأيته فيها ، وان كانت ــ بلا تفاصيل محددة ــ تدعو الى الاشـــفاق ••

هل وضعت الحقيبة على الأرض ، وسألته عن حاله ، أو أنه هو الذى نادى ، فاتجهت نحوه :

– من الاسكندرية ؟

– لى أقارب فيها ..

– أصحبك اليهم ؟ ..

– لا أعرف أين يقيمون ..

– اشفق عليك من قدوم الليل ..

هزنى صمته المتحير ، فأردفت :

– بيتنا قريب .. استرح قليلا .. ثم تدبر الأمر ! ..

*

تبينت – فى بيتنا – ملامحه . أهمل شعره ، فانسدل على جبينه حتى لامس الحاجبين . تناقضت نظراته الحادة مع خطواته المتهملة ، والآهة التى رافقت جلوسه فى « الأنتريه » المقابل لباب الشقة ..

دعوته الى كوب شاى . تشاغلنا بالحديث عن نظرات أختى المتطلعة . حمادة الصغير آخر من انسحب الى الغرفة

القبلية المطلة على شارع اسماعيل صبرى . ارتفع صـوته وهو يخاطب قطع الزلط الصغيرة ، نظمها فى صفوف متقابلة ، تأهبـا للمعركة التى يديرها ..

علا صوت المطر فى الخارج . تقاطر رذاذه على نافذة المطبخ المغلقـة ، ثم انهمرت القطرات . تناهى صـوت حمـادة من الداخل : يا مطرة رخى رخى .. على قرعة بنت اختى ..

شرقنا وغربنا . حدثنى عن ظروفه ، فحدثته عن ظروفنا . قلت ما أسعفنى به الخـاطر والذاكرة ، وان تبينت ــ ربما بعد أيام ــ أنه كان مقترا فيما روى ، بينما أطلقت لخاطرى ما كان يفد اليه فيرويه ..

لاحظ دهشتى لأسئلته التى كأنها تعلم بأحوالنا جيدا ..

ــ فلماذا تسأل عن مكان أقاربك ؟ ..

ــ لا أعرف أين يقيمون ..

ــ تحيرنى ! .. ألا تتابع أنباء الحى ؟ ..

ــ فقط أقاربى من هنـا ..

*

فى الصباح ، داخلنى اشفاق لما رأيته — فى المطبخ — يعد لنفسه كوبا من الشاى . لم أناقش مغادرته مكانه فى الأرض، بين صفين من الأسرة ، فى الغرفة المطلة على سيدى على تمراز . بدا عفويا فى تصرفاته ، فدعانى الى مشاركته احتساء الشاى ..

مال الى دورة المياه ، فاغتسل . لاحظت أنه طوى الفوطة باحكام — عكس ما نفعل — قبل أن يعيدها الى موضعها . واتجه الى مقعد فى مواجهة « البلكونة » المطلة على الميناء الشرقية ..

*

بدأ اخوتى فى مغادرة الشقة ، فغلبنى الحرج ..

كنا واحدا وعشرين ولدا وبنتا . من أب واحد ، وان تعددت أمهاتنا . وعينا على الاقامة فى الشقة المطلة — من ناحية — على سيدى على تمراز ، ومن ناحية ثانية على الميناء الشرقية ، تسعنا — بالكاد — حجراتها التى تبلغ سبعا . أهمل البعض — لظروفنا المادية — مواصلة الدراسة ، فالتحقوا بوظائف صغيرة فى الميناء الغربية ، أو لدى تجار فى شارع الميدان وسوق النصر . يساعدون من ظلوا فى المدارس على استكمال تعليمهم ..

قال : وهو يسند قدمه الى المقعد المقابل :

ـ اذهب الى عملك •• وسأغلق الباب ورائى ••

❋

فكرت فى قضاء اليوم أجازة • يصعب أن أتصـوره فى البيت بمفرده • لا أعرف عن ظروفه سـوى ما حدثنى به • مع ذلك ، فقد غادرت البيت • لم تتحول نظراتى عن بلكونة الشقة، قبل أن أميل الى شارع التتويج • تصورت ــ لا أدرى لم ــ أنه ربما يراقب خطواتى المبتعدة ••

❋

عدت الى البيت بعد ساعتين ، أو أقل • حاصرتنى الظنون، فلم أدر كيف أتحـدث ، أو أجيب على الأسـئلة ، أو أرتب الأوراق • وسقط كوب الشاى لارتعاشة يدى وأنا أتناوله ••

أدرت مفتاح الشقة ، يسبقنى التخوف من سرقة الرجل لما فى البيت ، قبل انصرافه ••

أطلقت ــ غصبا عنى ــ صيحة مفاجأة ، لما رأيته جالسا على الكنبة ، فى وسط الصـالة ، يقرأ صحف الأيام الماضية••

❋

بهرنا بأفاعيل كأنها السحر وألاعيب الحواة . حـاول حمادة تقليده ، فأخفق . ولم نعد نلاعبـه الشطرنج بعد أن تكررت ــ بسهولة ــ انتصاراته علينا ..

*

قال حمـادة :

ــ أريد أن ألعب ..

قـلت :

ــ ومن يمنعك ؟ ..

قـال :

ــ هذا الرجل .. يبعدنى اذا لعبت فى الصالة .. ويأمرنى بالصمت اذا لعبت فى غرفتى ..

قـلت :

ــ كلها أيام ، ويترك البيت ! ..

*

لم نعد نطيقه . غابت فى تصرفاته نية الرحيل . غادر مكانه فى الأرض بين الأسرة . لزم الكنبة المقابلة لباب الخروج .

أسند حقيبته الى الحائط بالقرب من مجلسه معظم النهـار • وحين يضع رأسه فى منتصف الليل ، لا يقدم الموعد ولا يؤخره• لا يشغله ان نواصـل سهرنا ، أو يحل علينا التعب فننـام • يناقش ويسأل • يغلبنا الحرج ـ أحيانا ـ فنجيب على أسئلته ، أو ينشغل بقراءة الصحف ، ومشـاهدة التليفزيون حتى ينتصف الليل • يعدل الوسادة تحت رأسه ، ويسحب الغطاء ••

شخط فى حمادة الصغـير ـ ليلة ـ عندما طال لعبه فى الصالة بقطع الزلط :

ـ كبرت على هذه الألعاب ••

أضاف فيما يشبه التحذير :

ـ انشغل بدروسك أفضل ! ••

صرخ حمادة :

ـ لا شأن لك ••

هوى على حمـادة بصفعة ، فاجأته ، وفاجأتنـا • اندفع حسام ـ بتلقائية ـ ناحيته • أوقف اندفاعته ، وغلبنا الذهول ، لمـا ومضت المطواة التى أخرجها من ثيابه ••

انسحبنا الى حجراتنا . حتى حمادة ترك قطع الزلط فى أماكنها . دفعه الخوف الى الحجرة التى تضمه وستة من اخوتى ..

*

— متى يغادر البيت ؟ ..

أمضنا الألم عندما تماوجت الأعماق بالسؤال ، وتخاطبت به الأعين ، دون أن تتيح جلسته المستقرة فرصة لأن نجلس ونتناقش ، ونتوصل الى رأى . نأتى ونذهب ، نجلس ونتحرك ، ننام ونصحو ، يشغل السؤال مساحة الشقة كلها ..

كنا فى حالنا لا نختلط بالجيران الا لضرورة . صباح الخير يا جارى ، انت فى حالك وانا فى حالى . حذرنا حسن لما جلس مع أصحابه فى قهوة المطرى المطلة على الكورنيش ، يوم تسلم راتبه المرة الأولى . عاد الى مألوف عادته ، عادتنا . نعود من أعمالنا ومدارسنا ، فلا نغادر البيت الى صباح اليوم التالى ..

مع ذلك ، لم تكن حياتنا تخلو من تحرشات الجيران أو سابلة الطريق ، وربما شتائمهم واعتداءاتهم . ندافع عن أنفسنا بالقدر الذى تتيحه لنا قوتنا . أفلحنا فى رد اعتداءات

الجيران أو المـارة الذين طـال أذاهم واحدا من اخـوتى • قلبنـا ــ ذات يوم ــ عربة بطيخ دفع البـائع أخى حمـدى بمقدمتهـا ••

الأمر ــ هذه المرة ــ يختلف • بريق النصـل الحـاد يذوى الكلمات • لم تتحـدث فى أعمالنا ولا الى الجـيران أو سابلة الطريق ، عن الخوف الذى شل تفكيرنا فعجزنا عن التصرف • تكرر خروجنـا والعودة فى آلية صامتة • أجهدنا التفكير ، وان عجزنا عن فعل شىء ••

جاوز الصمت الزاعق الى مطالبات وشتائم • رفض حمادة احضار كوب ماء من المطبخ ، فصفعه بلا تردد • أهملنا الأمر حتى حسام ظل فى جلسته أمام التليفزيون ، كأنه لم ير شيئا ••

*

أيقظنا الصراخ من نومنا • هرعنا الى حيث الرجل • كان قد أمسك بذراعى حسام ، وراح يخبط رأسـه فى الحـائط ، وحسام يستغيث بأسمائنا ، واحدا واحدا • لم نعرف بواعث ما حدث ، ولا لمـاذا فعل الرجل ما فعل ، غير آبه بشـتائم حمادة ، وجذبه لبنطلون بيجامته بأصابعه الصغيرة ••

نظرت الى اخوتى ، ونظروا الى • غلبنا التخاذل والحيرة ، فلم نتكلم ، أو نفعل أى شىء ••

سعى حمدى الى غرفته ، وصفق الباب ــ بشدة ــ وراءه • ترك الرجل ذراعى حسام ، فتهــاوى الى الأرض • دار الرجل حول نفسه ، فواجه نظراتنا بهزة من ذقنه ، تأمرنا بالانصراف••

عدنا الى حجراتنــا فى تثاقــل ، كأن أقدامنــا التصقت بالأرض ، وان شملتنى ارتعاشــة لنسائم منعشة من خــلال النافذة البحرية •

ابداع يونيو ١٩٨٧

انتحـــــار

تكورت قبضتاه ، واندفع يجاوز العربات المندفعـة من شارع الميدان الى الموازينى ..

لاحظ نظراته المتوجسة فى سيرهما أمام زاوية الأعرج .
أشار الى الجالس يقرأ القرآن داخل الزاوية ، بدا ــ بعباءته الخضراء ، واستناده الى الجدار الذى اصطبغ باللون نفسه ــ كأنه جزء من المكان ..

ــ كنت تحبه ..

ــ ومازلت ..

أضاف فى حزن حقيقى :

ــ لكننى أكره قسوته ! ..

ــ لا أراه يغادر الزاوية ..

— وهؤلاء الذين تدفعهم كلماته الى ارتكاب الجنون !.

كان يصلى فى الزاوية أحيانا . يستمع الى أحاديثه ونصائحه ، ويسأله المشورة . ضايقته ملاحظات نصف الدائرة حوله . أهمل الرد والنقاش ، واستمر فى القاء ما شغله من أسئلة . قال له أمام المريدين :

— أنت تحرص على مواعيد طعامك..فلماذا تهمل مواعيد الصلاة ؟ ..

علت التعقيبات المؤيدة . غادر الزاوية بلا عودة . أحس بالمتابعة حتى بعد أن يغلق عليه غرفة نومه . أدرك الحصار فى أماكن لم تخطر له ببال ..

— زره ، وناقشه .. يتبدد سوء الفهم ! ..

— أنه عداء صريح ..

*

لمحه فى دكان بيع الصحف أول الموازينى ، يقلب فى الكتب الجديدة ..

همس لنفسه :

— يقرأ ما لا أفهمه ..

يعرف أنه هو ، من النقرات الثـلاث على باب الغرفة . يدهمه التوتر لمرآه وهو يحمل ـ كعادته ـ كتابا ، فتح احدى صفحاته بين أصابعه . يتشاغل بما فى يديه ، وان أعطـاه انتباهه جيدا . يحدثه عما فى الصفحة التى طويت على أصابعه ، وعن صفحات وكتب أخرى ..

هتف ـ يوما ـ بعصبية :

ـ تغيظنى ملاحظاتك ..

ـ هل أفرض عليك رأيى ؟ ..

قاوم الغضب :

ـ وهل تستطيع ؟ ! ..

فى نفـاد صبر :

ـ أفسد سوء الظن علاقتنا ..

وهو يضغط على الكلمات :

ـ أنا لا أطمئن اليك ! ..

*

فضـل أن يشترى الجريدة من ميـدان أبى العبـاس ، فلا يواجهه الواقف داخل الدكان بما يثيره ..

– ضقت بملاحظاته •• ونصائح الجالس فى زاوية الأعرج ••

أغلق الباب – بعنف – وراءه ، وان تناهت الكلمات واضحة :

– **قل وجهة نظرك ••**

– لن آمن بعد الآن لشخص أو لتصرف ! ••

– أخشى أنك تعادى الجميع ••

– بوسعى أن أعتمد على قوتى ••

*

قبل أن يواصل الطريق الى ميدان أبى العباس ، خرجوا اليه من مسجد الموازينى ، والفرن المواجه ، ومن الشوارع الجانبية ، والبيوت القريبة ••

الثقافة يوليو ١٩٨٩

احمس يلقــى الســلاح

- ١ -

أفففف . نظر ـ بتلقائية ـ وراءه . لمح الجندى وهو يعيد الحاجز الحديدى الى موضعه . ثبت يده على «الكلاكس» يفسح طريقــه بين المتزاحمين أمام باب الجمرك ، ومضى فى شارع النصر ..

قبل أن يميل الى ميدان المنشية ، تذكر لحنا لأم كلثوم : يا مسافر على بحر النيل .. أنا ليه فى مصر خليل .. أســكت الدندنة ، وقرر ألا يرفع يده عن « الكلاكس » قبل أن ينتهى زحام المنشية الى طريق الكورنيش ..

- ٢ -

أنعشته نسائم الخريف ، فلزم جانب الكورنيش الأيمن ، يفسح الطريق للسيارات المسرعة ..

لم تسعفه الذاكرة بأغنية قديمة ، فعاد الى الدندنة بلحن أم كلثوم ..

قال له وهو يتجه الى داخل الدائرة الجمركية :

ــ لا تعتبر الهجرة تصرفا نهائيا ..

وهو يطمئن على جواز السفر والتذكرة :

ــ سأحاول ..وان كنت لا أعد ..

قـال :

ــ مع انى أصغرك بعامين ، فان أمنا لا تعترف الا بك بديلا للأب الراحل ..

وهو يضغط على ساعده بأصابع مترفقة :

ــ هذه فرصة لاثبات كفاءتك ! ..

نفض رأسه ، وأعاد التحـديق فى المرآة أمامه ، كأنمـا ليستوثق مما رأى : قائد السيارة التى تتبعه ، سكنت حركته فى امتداد ساعديه ، وامساكه بالمقود . الملامح الجـامدة تذكره باللحظات التى لم تفارق ذاكرته : دفعت به أمه الى السلم بيد أرعشها الفزع ، فخطف الدرجات . لم يرفع اصبعه عن جرس شقة الطبيب فى الطـابق الأول الا حين أطـل الرجل بوجـه غاضب ، وان ابتلع الكلمات عندما أخبره بما حدث ..

دس الطبيب السماعة داخل الحقيبة الجلدية • صعد الى فوق ، وهو يتبعه ••

بدت خطوات الرجل متمهلة • أطال الوقوف خلف النافذة المطلة على ميدان الساعة • دنا بجسده فتلامسا كأنما ليدفعه ••

غالب ردده :

ـ لقد غاب عن الوعى تماما ! ••

شمل الطبيب الجسد الساكن بنظرة متفحصة • فك أزرار القميص ، ورفع الفانلة ••

كان البطن قد تكور بصــورة غريبة ، وبحلقت العينان ، وتداخلت فى شحوب الوجه زرقة قاتمة ••

مال بأذنه ، فتصنت على الصدر ، وضغط باصبعين فى البطن المنتفخ ، وقلب العينين ، وحدق فيهما • ثم لملم الثيــاب كيفما اتفق ، وسحب الملاءة ، فغطى الجسد كله ، وقــال : انتهى ! ••

ذكره السائق وراءه بالصورة التى شاهد فيها أباه لمـا أعلن الطبيب وفاته • زاد من السرعة ، فغابت الســيارة فى انحناءات الكورنيش ••

- ٣ -

نهض لاستقباله ، فلم يفتش عن مقعد ، وظل واقفا ..

ســأل :

ــ ســافر ؟ ! ..

قــال :

ــ نعم .. وأشكر لك عونك ..

ــ والســيارة ؟ ..

ــ أعدتها الى الجراج ..

ــ هل طالبوا بتصريح ؟ ..

نظر الضابط الى السيارة ، فأذن بالدخول ..

ــ معاملاتنا كثيرة داخل الميناء ، كما تعرف ..

ــ أمى واخوتى .. كلنا نشكرك ! ..

ــ هذا واجب .. لوالدك أفضال علينا ! ..

أغلق الباب وراءه . سار فى الردهة الطويلة ، على جانبيها حجرات تضيق بالمكاتب وأصوات الآلات الكاتبة والحاسبة وأجهزة الكومبيوتر ..

قبل أن يميل الى المدخل الخارجى ، توقف ــ بتلقائية ــ ، وأعاد النظر الى الحارس الذى بدا ــ لفرط هموده ــ كأنه التصق بالمكان . راعته السحنة الغريبة الساكنة ، أعادت الحادثة القديمة ، لما أعلن الطبيب ــ فى يأس ــ وفاة أبيه ..

اهتزت قدماه ، ومسح السكون والحجرتين المغلقتين من حوله . داخله خوف ، فزاد من خطواته ، حتى أنقذته حركة الطريق .

ــ ٤ ــ

روى لأمه ما حدث : وداعه لأخيه حتى غادرت الباخرة الميناء ، حرصه ــ وهو يعيد السيارة ــ على شكر الرجل . تذكر فروى خوفه من قائد السيارة ، وحارس المبنى ..

قالت الأم وهى تمسح ــ بعناية ــ بقعة فى جانب الترابيزة :

ــ جاء دورك لقيادة الأسرة ..

ــ أنا أجيد المذاكرة فقط ..

أضافت بعصبية :

ــ وقيادة السيارات ؟ ..

ـــ أقود سيارات الآخرين لأنفق على نفسى ..

ـــ مات والدك .. وأصر أخوك على الهجرة..وها نحن..

قاطعهـــا :

ـــ صح ما توقعته ..

شابت صوته حدة :

ـــ هل نرجىء الحديث ؟ ..

ثم بلهجة تغلفت بالاشفاق :

ـــ أقدر مشاعرك لسفر أخى ..

لمح الدمع فى عينيها :

ـــ تحدث الرجل عن أفضال أبى ! ..

ما حدث مضى ككابوس ، وان لم يبرح الذاكرة . عاد ـــ فى يومه الأخير ـــ مهموما ، فأثار قلقها . يغادر البيت ذات صباح، يعود بعد عشرة أيام ، وربما بعد خمســة عشر يوما . يفض الأوراق عن الهـدايا التى أتى بها من العريش أو القـاهرة أو الاسكندرية . يتنقل بين جمارك المدن الثلاث . قدم فى رحلته الأخيرة من العريش . سألت عن ضخامـة الهـدايا ، فحدثها عن صفقة العمر . احتواه الصمت بعدها ، ولزم السرير فلم يغادره ، حتى فاجأته الأزمة فى الليلة ذاتها ..

لحق أمه وهى تدخل حجرتها :

ــ أثنى الرجل على أفضال أبى .. فلماذا لا أقصده فى وظيفة ؟ ..

ثنت اليه نظرة قلقة :

ــ ليتك تبتعد عن هؤلاء الناس ..

ــ ولكنهم أصدقاء أبى ؟ ..

ــ مات أبوك دون أن يشكو مرضا ! ..

أخلى وجهه للدهشة :

ــ لا شأن لهم بموته ! ..

ــ منذ عرفوا طريقهم اليه ، لم تفارقنا المتاعب .. ولعلهم وراء هجرة أخيك ! ..

أضافت ، وهى تغلق الباب وراءها :

ــ ابتعد عن هؤلاء الناس ! ..

ــ ٥ ــ

كان قد اتخذ قراره . أثق فى نياتكم . اذا كانت أفضال أبى خدمات ، فانى أعد بما فوق الطاقة . بوسعى أن أفعل

ما كان أبى يفعله • دلونى على الطريق التى سار فيها ، فلا أخطىء معالمهـا ••

- ٦ -

استقبله زحام ميدان الساعة ••

قبل أن يعبر مزلقان الترام ، اجتذبته سحنة بائع الصحف على ناصية الميدان • عاود التحديق ، فرأى وجه أبيه لمـا أتاه الطبيب ••

أسرعت خطواته فى غير اتجاه • انشغل حتى عن النظر الى وجوه الناس من حوله • ارتمى داخل تاكسى لبى اشـارته • أغمض عينيه ، وأسند رأسه الى الخلف • حاول السيطرة على لهاث أنفاسه ••

سأل السائق عن الاتجاه ، ففتح عينيه • اصطدمتا بالمرآة أمامـه ••

هز رأسه ، وأعاد النظر ••

صـرخ ••

الشرق الأوسط ١٩٨٧/١٢/٢٥

حـــالة ..

أشار الطبيب الى الكرسى المقابل لمكتبه ، فجلس . نسى الحرج الذى كان يعانيه وهو يفكر فى زيارة الطبيب ، وهو يتخذ قراره ، وهو يجلس فى الصالة الواسعة ، يتأمل الأسقف العالية والجدران والشرفة ذات السور الحديدى ، انشــغل بالتطلع منها طفلان ، تتابعهما أعين أبوين ينتظران دورهما ، بينما تناثر بقية المرضى فى الصالة ، وفى ثلاث غرف متصلة بها..

مال الطبيب يتصفح التقارير والأشعة ، فتأكدت — فى ضــوء المصــباح — حمرة وجهــه ، وابتسامة لا تشى بقــلق أو اطمئنان ..

حين قرأ فى الجريدة بقدوم الطبيب الأجنبى ، قرر أن يكون أسبق الجميع لزيارته . طال تردده على عيادات الأطباء ، وعمله بوصفات الشيخ نجاتى ، خادم مسجد « على تمراز » .

حتى الرقى والتعاويذ التى تهمس بها زوجته — عند دخوله حجرة النوم — بدت سخيفة ، وبلا معنى ..

دله بائع صحف فى ميدان محطة الرمل على العمارة المواجهة للميناء الشرقية . قال : لن تجد أسم الأجنبى عليهـا .. فهو ضيف على صاحبها ..

قال الطبيب :

— لم تشر التقارير ان كانت الحالة خلقية أم طارئة ؟ ..

غالب انفعاله :

— ان لى زوجة وأبناء ..

— فمتى بدأت الحالة ؟ ..

— لا أذكر بالتحديد .. بل انها تفاجئنى — أحيانا — بغيابها ، ثم تعود مرة أخرى ..

أضاف لدهشة الطبيب :

— انها تغيب فى أوقات الفرحة .. ثم تقتلنى فى أوقـات الحزن ! ..

قال الطبيب مداعبا :

— دواؤك الفرحة اذن ؟ ! ..

استطرد متسائلا :

ــ هل الحــالة وراثيــة ؟ •• أعنى هل أصيب بها أحد أقاربــك ؟ ••

مع ان اخوته كتموا ما يعانون فى نفوسهم ، فان مجــالس الزوجات فضحت ما تصــوروه مستورا • عرف أن الحــالة القاسية أصابت اخوته فى الأوقات نفسها التى أصابته فيهــا • تحــدثوا فى الأمور العامــة والخاصــة ، اتفقوا واختلفوا ، وتبادلوا رواية متــاعب العمــل والأولاد والأمراض •• لكن الحالة التى تأكد مما روته زوجته ، عن زوجات اخوته ، انهــا تسللت الى الأجساد التى كانت تباهى بفتوتهــا ، ظلت سرا يختزنه الجميــع ، يكتمون الصــدور عليه ، فلا يتبادلونه فى مجالسهم ، وان فضحته الزوجات ، فلم يعد سرا ••

ــ ربما أصابت بعض أخوتى •• ولكنهــا لا تمثل مرضا دائمــا ! ••

لحق بالطبيب وراء البارفان ، فى نهاية الحجرة • فك ــ دون أن يطالبه الطبيب ــ أزرار قميصه ، وشلح القميص والفانلة الى أعلى صدره ، وتمدد على السرير الملاصق للحائط ••

تحسس الطبيب بالسماعة صــدره وظهره ، ودعــاه الى الشهيق والزفير ، ونقر ــ باصبعه ــ على مواضع فى جسمه •

غـالب الحرج وهو ينفـذ أمر الطبيب بنزع بنطلونه وسرواله . تشاغل بالنظر الى صـورة معلقة ، لكلاب صـيد تطارد أرنبا ، والطبيب يتأمل ما بين فخذيه ..

تناول الطبيب من المـائدة المجـاورة ما لم يتبينه . دنـا بوجهه من أسفل بطنه حتى أحس بأنفاسه ..

جرى الطبيب بالمشرط فى سرعة مذهلة ، فانبثق الدم ، والألم ..

أطلق صرخات ذاهلة ، متوالية .. بينما الطبيب يقذف بما اقتطعه فى السلة المجاورة ..

ادب ونقد يوليو ١٩٩٠

المؤكد انى سرت أمام البيت ، فى طريقى من الحجـارى الى المسافرخانة • بابه الخشبى الضخم ، المتآكل من أطرافـه ، تتوسط احدى ضلفتيه سقاطة على هيئة وجه أسد ، تعلو ثقب مفتاح ، حاول الأولاد أن يتعرفوا منه الى داخل البيت • مع ذلك ، فانى لم أتنبه الى خوفى من الوقوف أمامه ، أو السـير بالقرب منه ، الا عندما قال الولد عباس الدمنهورى :

ــ هذا البيت مسكون بالعفاريت ! ••

غالبت ارتعاشـة ، وتنبهت الى أنى كنت أعرف ــ منذ فترة ــ سكنى العفاريت للبيت ••

فلما أردف، عباس الدمنهورى :

ــ وهذه المرأة تؤاخى العفاريت ! ••

تذكرت ان ذلك ما كان تردده أمهاتنـا ، وان رفضن ــ

باصرار ــ أن ننقل ألعابنا من الشارع الضيق الطويل الى شارع المسافرخانة . السيارات المسرعة خطر ، وهدوء الشارع الجانبى يتيح لنا اللعب فيه ..

كان الجدار المقابل ، لمدرسة ، تطل واجهتها على المسافرخانة . تخدش ألعابنا هدوء الشارع : عنكب يا عنكب وأولها اسكندرانى والنحلة والبلى والكرة الشراب . فاذا جاء الليل ، ساحت المعالم فى ظلمة ثقيلة ..

وتجنبت السير فى الشارع ، الا بصحبة أهلى أو أصدقائى . أكتفى بالنظرة الثابتة الى أمام ، فلا أتلفت ولا أنظر خلفى ..

اقترحت على الأولاد أن نهمل التحذيرات ، وننقل ألعابنا الى شارع المسافرخانة الواسع ، بدلا من الشارع الضيق ..

اعترض قبارى خضر :

ــ طول عمرنا نلعب فى هذا الشارع .. فلماذا نغيره ؟ ..

قلت وأنا أغالب الحرج :

ــ انه بالكاد يكفى لوقوفنا ..

قال عباس الدمنهورى :

ــ ولكن المسافرخانة مزدحم بالناس والسيارات ..

واستطرد قائلا :

ــ وحتى اذا كان البيت مسكونا بالعفاريت ، فانها لا تظهر الا فى الليل ، وتهاجم السائر بمفرده ! ..

وظللنا نلعب فى الشارع الضيق الطويل . أشعر بالونس لوجود الأولاد ، وان تعمدت ألا أقترب من البيت . فاذا سرت بمفردى ، قرأت قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ..

*

كانت تسكن البيت امرأة وحيدة . لا تخالط الجيران ، ولا تطل من النافذة ، ولا يصدر من الداخل صوت راديو أو تليفزيون ..

وكانت المرأة توارب الباب لأصوات الباعة . تمد يدها بالنقود ، وتهمس بما تحتاجه . لا يبين منها الا الرأس وأعلى الكتف واليد الممدودة . ثم تنسحب الى الداخل ..

وكنت اذا رأيتها تشترى من خلف الباب الموارب ، حدقت فى وجهها : بشرة سمراء ، تسللت اليها تجاعيد خفيفة ، وملامح هادئة ، وفى العينين التماع دائم كأنها تبكى . ويسرح بى الخيال

فى حياتها مع العفاريت . ألا تخـاف أذيتها ؟ ! . وأتصـور العفاريت قائمـة ، قاعـدة ، ماشـية ، تملأ البيت بأحاديثهـا وأفعالهـا ..

*

لمـا صر الباب فجأة ، وأطل وجه المرأة من الضلفة المواربة، كنا نختلف على من يحـل عليه الدور فى لعبة صـلح . أكد جابر العشرى انه قد حدث خـداع ، فهو لن يقبل بالنتيجة . وعارضه عباس الدمنهورى فى انه هو من حل عليه الدور . واختلطت أصواتنا بما لا يعبر عن رأى محدد ..

ـ اذهبوا من هنا ..

سرت فى وجهها حمرة قانية بدلت ملامحها . حتى عيناها غاب عنهما ذلك الالتماع الدائم . وظل الباب مواربا ، فلم تفتحـه ..

قال قبارى خضر :

ـ الشارع ليس ملكا لك ! ..

استطرد عباس الدمنهورى :

ـ اغلقى باب بيتك ! ..

حاولت مداراة الانفعال فى احكام الروب القطنى حول جيبـــها ••

فاجأها بهاء العسال :

ــ حتى عفاريتك نحرقها لو فكرت فى أذيتنا ! ••

اهتزت يدها بعصبية ، وتمتمت شفتاها بمـــا لم نسمعـــه أو نفهمه • ثم انسحبت الى داخل البيت ، وصفقت الباب ••

*

لا أدرى ان كانت قد تنبهت لخطواتنا ، أم أنها فتحت البـــاب فى اللحظـــة التى كنا نسير فيها أمام البيت • تصـــور قبارى خضر انها تريد أن تثأر لمـــا قلناه ، فأسرع من خطواته • لكن الابتسامة المشجعة ، وتخليها عن مواربة الباب ، والرموش المهتزة فى ارتباك •• دفعتنا الى التوقف :

ــ أريد مساعدتكم ••

أضافت للدهشة المتسائلة فى وجوهنا :

ــ أشياء قديمة تحملونها الى جانب الجدار ••

وأشارت الى قرب الباب من الخارج ••

لاحظت وقفتنا المترددة ، فأردفت :

ـ لا تخافوا .. فأنا مثل أمكم ! ..

تشجعت بدخول عباس الدمنهورى وبهاء العسال ، فدخلت . ربما للفضول ، أو لأن المرأة بدت فى حاجة الى المساعدة فعلا ..

المدخل ضيق مظلم ، يفضى الى صالة واسعة تطل على منور خلفى ، تفذ منه ضوء النهار . الكنبة الاستامبولى فى المواجهة ، وعلى اليمين كومودينو ، فوقه شمعدانات . وعلى الحائط آيات قرآنية ولوحات للسفيرة عزيزة وسيف بن ذى يزن والهلالى يعارك الزناتى . وعلى اليسار كرسيان متقابلان من الأرابيسك . وفرش على الأرض سجادة من الكليم الأسيوطى . والظلمة الشفيفة تبين عن سرير نحاسى فى نهاية الحجرة المطلة على الشارع ، بينما أغلقت الحجرة المقابلة ..

*

علا صرير مفاجىء ، فالتفت ناحية الباب المغلق . فتحه قبارى خضر بما يكفى لدخوله ، واختفى فى الداخل . ظللت فى وقفتى يحاصرنى الخوف والوحدة . حمل عباس الدمنهورى ما وضعته المرأة على رأسه ليلقى به خارج البيت . علت صرخة قبارى خضر من داخل الحجرة المقابلة . اندفعت بالخوف الى الداخل . كان قبارى قد تصلب فى وقفته وسط الحجرة .

يشير الى هياكل عظيمة تساندت الى الجدار ، فى نهاية الأرضية الخالية ، تداخلت بها خيوط عنكبوتية ، متربة • وعلى الأرض جماجم متناثرة ••

أفاق قبارى من ذهوله ، فدفعنى الى الخارج ••

كانت المرأة قادمة من الحجرة المقابلة ، فى عينيهـــا ما لم أستطع مواجهتـــه ، وأنا أجرى بآخر ما عندى الى خـــارج البيت ••

المنتدى مارس ١٩٩٣

أكتوبـر ١٩٩٤/٣/٢٧

ما زلـــت

- ١ -

أنا أحــلم كثيرا . وحين أصحو من النــوم ، أنسى كل ما كنت أحلم به . لا يعلق بالذاكرة سوى مشــاهد سريعــة كالومضات . لا أذكر صورتها الواضحــة ، ولا مدى اتصالها بأحداث سابقة أو لاحقة . شوارع وأزقة وميــادين وحدائق وتماثيل وشواطىء بحار وترع وأسواق .. بالاضافة الى ناس بهتت ملامحهم ، أو غابت تماما ..

وعندما يوقظنى المنبــه ، أو نداء أخى الأصــغر ، أقول كالمتذكر :

ــ هــذا الحلم ..

ــ خــيرا ؟ ..

أتأمل فراغ الحجرة ، أحاول أن ألتقط طرف خيط أكر به الحكاية ، ثم أقول وأنا أهز رأسى :

ـ لا أتذكر شـيئا ! ..

ـ ثبت ما تذكره .. ثم صله ببقية الحلم ..

أعيد تأمل الفراغ ، ثم أهز رأسى :

ـ لاشيء ! ..

ـ ٢ ـ

قررت أن أضع على « الكومودينو » بجانبى ورقة وقلما . أكتب ما حلمت به فور استيقاظى . وكتبت بعض الصور التى لم تشكل ـ فى أى يوم ـ مشهدا كاملا . فلما غلب النوم محاولتى ، وضعت على « الكومودينو » مسجلا صغيرا . أضغط على مفتاح التسجيل . أروى مشاهد الحلم ، أو ما أتذكره منها. اتسعت الومضات ، فتذكرت مداخن وعلاقات جنسية ومطاردات وقيعان آبار وقطارات وقضبان حديدية واشـارات مرور ونخيل وأشجار ورمال ودورات مياه .. ولكنى فشلت فى تذكر أى حلم من بدايته الى نهايته ..

- ٣ -

اشتريت كتابا فى تفسير الأحلام • فتشت عن الدلالة التى تعنيها كل صورة ، حتى لو غابت بقية الصور ، وظل الحلم مبتورا بلا معنى • وعرفت ان البحر فى الحلم معناه الخير ، والسمك معناه الرزق ، والبكاء معناه الفرج ، والقمح معناه الخصوبة ، والصعود معناه الارتقاء ، والحجرة معناها الأمن من الخوف ، ورؤية الموت معناها الحياة الطويلة •• ولكن القلق لفنى حين عرفت ان قص شعر الرأس فى الحلم معناه فقدان القوة ••

- ٤ -

قال الطبيب :

ـ لم يكن ما ضغط على عنقك حلما •• انه كابوس ! ••

أعدت القول فى دهشة :

ـ كابوس ؟ ! ••

قال الطبيب مهونا :

ـ ربما أفرطت فى الأكل •• أو نمت حزينا ••

ـ لا أذكر بالتحديد •• ولكنى كنت صاحيا عندما سمعت الصوت ينادينى ، والأشباح تملأ الحجرة ، وتدنو من السرير ، وتضغط على رقبتى ••

أضفت فى تأكيد :

ـ كنت أرى كل شيء •• الكومودينو •• التسريحة •• الدولاب •• شماعة الملابس •• فلما حاولت التحرك فى مكانى•• فشلت ••

قــال :

ـ تبدو الأشياء فى الكابوس حقيقية ••

همست بالسؤال :

ـ وماذا أفعل ؟ ••

ـ لا تسرف فى الطعام وتجنب الانفعال ••

واكتفيت بوجبة الغداء ، فلا أتبعها بوجبة أخرى • أشرب كوبا من الشاى بالحليب ، وأقرأ صحف اليوم ، وأستمع الى نشرات الأخبار ، وأحاديث أصــدقائى ، وأنــام •• فأصحو على الأشباح تملأ الحجرة ، واليد الضاغطة تحيط بعنقى ••

عندما أحنيت رأسى لأدخل الغرفة الضيقة المعتمة ، كأنها القبو ، شملنى شعور مقارب لمـا أحس به وأنا أتهيـأ للنوم • لاحظ أخى الأصغر ترددى ، فدفعنى الى داخل الغرفة ••

نثر الشيخ البخور فى المبخرة ، فتضوعت فى المكان رائحة طيبـة ••

ـ هل مات فى حجرتك أحد أقاربك ؟ ••

ـ أبى ••

وسألت :

ـ لمـاذا ؟ ••

ـ ربما خطا فوقه قط ••

أضاف لنظرتى المندهشة :

ـ القط يحيل روح الميت الى شيطان ••

وعلا صـوته متعجبا :

ـ ألا تعرف أن الكابوس من الشيطان ؟ ! ••

- ٦ -

قال الطبيب :

ـ لا تنم الا اذا قهرك التعب ..

اســتبدلت حجرتى ، ولم أعد ألجــأ الى السرير الا فى المساء المتأخر . بنصرف الأصدقاء ، فأقرأ ، وأقلب المؤشر بين الاذاعات ، وأسترجع أحداث النهار ، حتى يأتى النوم ، فيصعب على المقاومة . أروح فيه وأنا فى مكانى ..

- ٧ -

طالت المناقشات بينى وبين أصدقائى . شرقت وغربت ، ووصلت الى طرق مســدودة . قال صديق مزهوا بمعلومته : للتاريخ دورات ، فلا حيلة لنا فى الأمر ! ..

غالبت النوم فى جلستى ، فبدت الوجــوه كالأطيــاف ، والأصوات بعيدة . وتماوجت الومضات ، وان ميزت من بينها مساجد وكتبا صفراء وبنايات قديمة ودكاكين تغطيها قيساريات، ووجوها ينبثق الدم من أنوفهــا وعيونهــا . وتعالت أنغــام كالموشحات ، اجتــذبتنى ، فلم أدر كيف أحاط الســاعدان بخصرى ، يعتصرانه ، يشدانه فى دوامات متلاحقة . بدا أصدقائى

قريبين ، وان لم أقدر على الاستعانة بهم ، ولا حاولوا انقاذى • تطوحت فى فراغ بلا ملامح ولا تفصيلات • حاولت أن أجـد صوتى ، فلم أستطع • قاومت لأتحرك حيث أجلس ، وأحاول القيام • أفتح عينى لأرى • بدا كما لو أنى جمدت تماما ••

استجمعت صوتى ، وصرخت بآخر ما عندى ••

ومازلت ••

الحيـاة ١٩٩١/٩/١٧

اكتوبـر ١٩٩٢/١/١٢

البوسعيد

حين انتهت صلاة الجمعة فى جامع الزيتونة ، خرج الى العنوان الذى حفظه . نظر الى ساعته ، فتبين سخف الموعد . أرجأ السؤال ، وتمشى فى الأسواق المحيطة بالجامع : الشماعين، والفنايرية ، والكتبيين ، والعطارين ، والشواشية . القباب المستديرة ، والمآذن ، والقيساريات ، والقلاع ، والحمامات ، والأزقة ، والقناطر ، والبيوت البيضاء ، والأبواب الخشبية الكبيرة ، والشناشيل تعلو الشبابيك الزرقاء ، والمعروضات الشعبية المعلقة على الجدران ، ورائحة البحر اقتحمت أنفه منذ اليوم الأول ، تآلف الملح واليود والطحالب والأعشاب . الأزياء الوطنية : القشابية والبرنس والحوكي واللحفة . المقاهى الكثيرة ، وأجهزة الكاسيت ترتفع بأصوات أم كلثوم وعبد الوهاب والأطرش وعبد الحليم والمواويل التونسية القديمة ..

قال لسائق التاكسى :

ـ سيدى بوسعيد ..

قال السائق وهو ينطلق :

ـ سـيدى بو ...

لم يكمل الكلمة . لاحظ أن كل من التقى بهم ينطقون الاسم ناقصا . الضاحية هى المقصودة . البيوت البيضاء الصغيرة ، المتساندة ، تتسلق الجبل ، تتشابك واجهاتها ، تعلو فوق بعضها فى تداخل يقتصر على اللونين الأبيض والأزرق . الأبيض للحوائط والجدران ، والأزرق للأبواب والنوافذ ، والشوارع الضيقة ، والدرجات الصاعدة الهابطة ، والأرض المبلطة بالحجارة ، وواجهات الدكاكين المزدانة بألوان لا حصر لها ، والمقاهى الصاخبة بالرواد والنداءات والنرد والشاى بالصنوبر ، والجلابيب ، والآلاف من أقفاص العصافير الملونة ، والحدائق المتداخلة بين البيوت ، وخليج تونس المترامى الى امتداد الأفق ، والنساء يطللن من الشناشيل ، ويثرثرن على الأبواب ..

سأل شابين فى مقهى ، وهو يتأمل الدرجات التى خلفها وراءه :

ـ أين بيت حميدو جرامى ؟ ••

استعاد كلام الأستاذ : حتى يكتمل البحث ، فلابد من سفرك الى تونس ••

تونس ؟ ! ••

بدت المغادرة نهائية ، واللقاء ـ ثانية ـ مستحيلا ، منذ لوحتم بأيديكم من داخل السيارة • أبى يهتف : مع السلامة • آمى تغالب دمعها • أنا وأخوتى نتابع ما يحدث فى حيرة ، لا ندرى ماذا نقول ، ولا كيف نتصرف ••

حين وصلت رسالة أبيك الأولى ، جلس أبى وسط رواد مقهى المهدى ، أسفل بيتنا • يقرأ بصوت مرتفع • يتوقف ليرد على سؤال ، أو ليناقش كلمة ، أو جملة • تكررت الجلسات ، وان قلت بالتدريج حتى انشغل أبى وأصدقاؤه بأحاديث أخرى ، عندما انقطعت الرسائل ••

استهوتنى الهلالية ، فاخترتها مادة لرسالتى • لم يشغلنى الزمان ولا المكان • شغلتنى الأحداث والشخصيات والرواة والملحمة والريادة والتغريبة والأيتام والخضرة والجازية والهلالى والزناتى ودياب وشمة وسعدة وعزيزة وعالية ودخول تونس وموت عامر الخفاجى ••

قفزت صورتك ، لما اقترح الأستاذ أن أسافر الى تونس. لابد أن ألتقى بك . فتشت فى أوراق أبى القديمة . هللت بالفرحة لقراءة العنوان خلف المظروف . هل نلتقى بعد فراق خمسة وعشرين عاما ؟ ! ..

البيت من طابقين . يكسوه اللون الأبيض . يطل من طابقه الثانى بروز لمشربية باللون الأزرق ، فتح أحد مصاريعها . وتحتها مباشرة — بمساحة أصغر — باب أزرق اللون ، تداخل فيه باب آخر بحجم الانسان ، تعلوه سقاطة ..

صعد السلمات الست المستطيلة بامتداد الشارع الضيق . جال بعينيه فى المكان حوله . السائرين ، والجالسين على المقاهى ، والمستندين الى الجدران ، والباعة ..

طرق الباب الصغير بالسقاطة . تبين أن الصوت كان خافتا، فلم يصل الى داخل البيت . أعاد الطرق ، فتناهى النداء من الداخل . علا — فى الطابق العلوى — صوت حركة ، تلاه وقع أقدام تهبط سلما ، وحركة واضحة خلف الباب ، قبل أن يفتح ، ويطل وجه متسائل لفتاة فى نحو السادسة عشرة ..

— بيت حميدو جرامى ؟ ..

— من أنت ؟ ..

— صديق من الاسكندرية ..

أردف ليحرك شعورها بالألفة :

ــ ابنتــه ؟ ..

هزت رأسها وهى تغــلق البــاب . كان التساؤل قد بدأ يناوشه ، ان كانت ستفتح الباب ثانية ، عندما أطل وجهها ــ مرحبا هذه المرة ، ومطمئنا ــ ودعته الى الدخول ..

الصــالة واسعة ، فرشت بالحصــير الملون . فى جانبهــا الأيمن كومودينو ، فوقه تليفزيون ، وتتوسطها كنبة وأربعــة مقاعد من الأرابيسك المعشق ، وعلى الجدران مشغولات من القماش والسجاد الملون والنحاس المطروق ..

ــ تفضــل ..

جلس على مقعد يواجه مدخلا ، غطى بستارة . رجح أنه المطبخ . نظر من النافذة خلفه . بدا البحر قريبا . المياه تضرب الأسوار الحجرية ، وثمة سفن كبيرة وصغيرة ، وأشرعة ، وسماء تعانى زرقتها خلف السحب ، وأسراب من الطيور تحلق فى نهاية الأفــق ..

كنت أتبــاهى على الأولاد بأنى أزور بيت التوانســة ، التسمية التى أطلقها سكان شارع اسماعيل صبرى على شقتكم، فى الطــابق الأول من بيتنــا . كنتم قليلى الاختــلاط ببقيــة

الجيران ، لولا أننا دخلنا مدرسة واحدة ، هى البوصيرى ، وأن أبى كان يلتقى بأبيك فى طريقهما الى صلاة الفجر .. لولا ذلك ــ ربما ــ ما كنت أتباهى على الأولاد بأنى أتردد على شقتكم . نجلس فى الحجرة المطلة على الميناء الشرقية . نذاكر ، ونلعب ، ونستمع الى برنامج بابا شارو . يغلقون علينا الباب . يدخــل أبوك ــ أحيانا ــ بعباءتــه التى تخــالف ما يرتديه آباؤنا . أعجب بها ، وأتمنى أن أرتدى ــ ذات يوم ــ مثلها . يسلم على ، ويبلغنى ما أنقله الى أبى . ربما تدخل أمك بصينية عليها حلوى لذيذة . أنتظرها ، وقد لا تجىء : هــذه حلوى تونسية .. خذ لأخوتك أيضا . قال أبى : يحيون كأنهم فى تونس .. صحب الرجل أسرته فى أعمال تجارية .. لكن الحرب أقعدتهم فى مدينتنا . هل ما زال أبواك يعيشان ؟ ! .

تنبه الى صوت نحنحة فى أعلى السلم . بدا الواقف فى البسطة العلوية ، بقامته القصيرة ، وجسمه الممتلىء ، ورأســه الخالية الا من شعيرات على الفودين ، على غير الصــورة التى يتذكرها . توقف لحظات ، ثم اندفع نازلا السلم ..

ــ أهلا وسهلا ..

هل يكون هو ؟ .. والقامة النحيلة المصوصة ؟ ! ..

— هل أنت ؟ ..

قاطعه وهو يضحك :

— أذكرك ولا تذكرني ..

تذكرني ؟ ! .. التمشي بين الحاويات والبضائع المكدسة في أرصفة الميناء الغربية ، العبور بالقارب الصغير بين باب رقم واحد وباب رقم ستة ، التطلع الى بواخر البوستة الخديوية ، تشغي بالبحارة والركاب ، مشاركة الصيادين سحب الجرافة على شاطىء الأنفوشي ، المذاكرة في صحن مسجد أبي العباس ، حضور الموالد ومواكب الزفاف وحلقات الذكر في ميدان الأولياء ، تناول الغداء في حنية سلم البيت ، السهر في ليالي رمضان الى أذان الفجر ، لعب البلي والطائرة الورقية والنحلة وأولها اسكندراني ..

أذكر ذلك كله ، كأنه حدث بالأمس . الوجوه وتفصيلات الأحداث والأمكنة ، فهل تتذكره ؟ ..

جلس الرجل على الكرسي المقابل . أميل الى السمنة ، وملامحه تهب احساسا بالاسترخاء . يرتدي عباءة تحتها سروال طويل ، وعلى رأسه قلنسوة حمراء ، أشبه بالجزء العلوي من العمامة ..

قال لمجرد أن يخدش الصمت :

ــ الكاتب الفرنسى آندريه جيد عاش وقتا فى هذه الضاحية ..

لم يبد انه تعرف الى الاسم :

ــ باهى ! ..

ــ قيل انه ترجم هنا مسرحية هاملت الى الفرنسية ..

ــ باهى ! ..

فضل أن يذكره بالأيام القديمة . البحر والمدرسة والمذاكرة وميدان الأولياء وحلقة السمك وأبى العباس والبوصيرى والميناء الغربية وأرصفة الجمارك ومحطة الرمل وميدان الخمس فوانيس وصلاة العيدين فى مسجد على تمراز وصيد المياس فى العصارى ..

افتعل الرجل ضحكة ، وقال وهو يشيح بيده :

ــ هذا زمان قديم .. شغلنى عنه الزواج والوظيفة ..

قال ليثير عاطفته :

ــ ألا تفكر فى زيارة الاسكندرية ؟ ..

ــ أكاد لا أحصل على اجازة •• وأجازاتى أقضيها فى البيت ••

وهز أعلى جسمه :

ــ أولادى خمسة •• يحتاجون الى رعاية ••

تحركت ستارة المطبخ • دخلت الفتاة • وضعت صينية ، عليها كوبان من الشاى ، وصعدت السلم الداخلى ••

قرر أن يعرض ما جاء من أجله :

ــ هل تعرف السيرة الهلالية ؟ ••

ــ ومن لا يعرفها ؟ ! ••

ــ جئت لأجلها ••

ــ تقدمها هنا ••

ــ أدرسها••أحداثها ــ كما تعرف ــ بين مصر وتونس••

وعلا صوته مداعبا :

ــ نحن الهلالية وأنتم الزناتية ••

أخلى وجهه لتساؤل :

ــ الهلالية سيرة معروفة •• فماذا تتوقع أن أضيفه لك؟••

ـ أدرس تأثر أبناء المدن الساحلية بها ..

قال فى تساؤله :

ـ لمـاذا أبناء السواحل ؟ ..

ـ نسيت انى من الاسكندرية ؟ ! .

ـ وما شأن الهلالية بهذا ؟ ! ..

ـ مجرد بحث فى الروابط ..

ـ كيف أسـاعدك ؟ ..

ـ تدلنى على رواة ودارسين ..

ـ ربما وفقت فى العثور على من يفيدك .. أما أنا ..

وأطلق من أنفه ضحكة خافتة :

ـ وظيفتى الحكومية تأكل كل وقتى ..

وقال كالمتذكر :

ـ لمـاذا لا تلجأ الى المكتبة الوطنية ؟ ..

امتد الصمت . تشاغل بالنظر الى المشغولات المعلقـة . تحرك فى مكانه ، يبدى نيته فى الانصراف ..

قال الرجل بود واضح :

ـ أرجوك •• لا تنصرف قبل أن تتذوق طعاما تونسيا ••

وهو يزرر جاكتته :

ـ هذا ثالث يوم لى فى تونس ••

ـ أم الأولاد تصنع «كسكس» باللحم والمرق •• لا تجده فى مكان آخر ••

اتجه الى الباب :

ـ ربما فى مناسبة قادمة ••

قام الرجل من مكانه :

ـ ان شاء الله ! ••

هبط درجات السلم • تلفت حواليه ، ليتأكد من الطريق المفضية الى قلب المدينة • تنبه الى صوت اغلاق باب البيت من ورائه •

المنتدى مايو ١٩٩٤
أكتوبر ١٩٩٥/٥/٧

الحــى الافــريقى

– ١ –

ضايقه الملل ، وشمس النهار القائظة . طالت وقفته أمام الفترينات ، واحتمى بالبواكى ، والظلال المنسحبة للبيوت ذات الطابق الواحد ..

لمح الطـوابير على باب السينما ، فاشـترى تذكرة من الشباك ، ودخل . فتح الباب ـ أعلى البلكون ـ فاقتحمه ظلام لم يقلل منه الضوء الشعاعى بين غرفة « التشغيل » والشاشة . هبط الدرجات ببطء ، ومال يتحسس طريقه بين الصفوف ، حتى لمست أصابعه كرسيا خاليا ، فجلس ..

تنبه الى سخونة الساق الملاصقة لساقه . نظر بجـانب عينه ، فلم يتبين ملامح الجالسة الى جواره . أسندت ساعدها الى المسند المشترك الفاصل بين المقعدين ..

حين زادت من التصاق جسمها بجسمه ، أهمل الأمر • أرجعه الى انشغالها بمتابعة الفيلم • فلما ضغطت بقدمها على قدمه ، غالب تردده ، وتسلل بكفه الى ساقها ••

- ٢ -

لما خرجا من دار السينما ، وواجها أضواء الطريق بدت أسنانها شديدة البياض ، وعيناها ملتمعتين ، فى وجه ضارب الى سمرة عميقة ، وبشرة ناعمة • أجادت رسم « الروج » على شفتيها فقلل من امتلائهما ، وارتدت تاييرا سماوى اللون ، يتناقض مع الألوان الصارخة حولهما ••

سبقته الى الطريق المفضية للسوق • تبعها بخطوات مرتبكة • توقفت فى انتظاره ، فنفض ارتباكه • أسندت ذراعها الى ساعده ، ومضيا ••

- ٣ -

كان الظلام يلف الخيام ، وأكشاك السوق ، فيما عدا أنوار باهتة ، تناثرت فى امتداد الطريق ••

قالت :

- جزائرى ؟ ••

ــ مصــرى ..

اتسعت عيناها ..

ــ ولكن .. ملامحك ؟ ..

ثم ســألت :

ــ مضى عليك فترة طويلة ..

ــ هذا هو يومى الثالث ..

وهى تضغط على ساعده :

ــ كم فتاة عرفتها قبلى ؟ ..

لجــأ الى المجاملة :

ــ أنت الأولى .. والأخيرة ! ..

قالت كأنها تستكمل كلاما بدأته :

ــ أحببت فرنسيا أشقر الشعر ..

وضربت بظهر كفها هواء الصحراء المحمل بالرمال :

ــ فاجأنى بعنصريته ! ..

وعدلت الحقيبة الصغيرة على كتفها :

ــ ماذا تعمل ؟ ..

ـ مـدرس ..

أومأت ناحية مجموعة خيام :

ـ مساكن المدرسين فى هذا الاتجاه ..

وقالت للدهشة فى ملامحه :

ـ نواكشوط مدينة صغيرة ! ..

سارت به الى ميدان ترابى واسع ، تناثر على جانبيه أبنية ذات طابق واحد ، ، يتوسطها مبنى عريض المساحة من ثلاثة طوابق ..

كان قد تردد على فندق « مرحبا » وفندق « البرلمان »، القريب من القصر الجمهورى . غاب عن تصوره أن هناك فندقا ثالثا سوى « بارك » الذى يشيد على شاطىء الأطلسى ..

أشارت الى كنبة طويلة فى مواجهة الباب ، ومضت الى البار على يمين السلم ..

تأمل الجالسين على الترابيزة المتقاربة ، بامتداد الصالة الفسيحة . كلهم من السود ، ما عدا شاب أوروبى يتبادل حديثا ضاحكا مع افريقيتين ، والأضواء الخافتة فى الأركان ، تبين عن تشقق الجدران ، وتساقط الطلاء ، وتواضع المكان بصورة واضحة ..

عادت ، وفى يدها زجاجـة حمراء اللون • ابتدرها وهى تعتدل فى جلستها أمامه :

ــ أنا لا أشرب ! ••

ــ اطلاقـا ؟ ! ••

هز سبابته فى تأكيد ••

وهى تدنى رأسها ــ متضاحكة ــ من رأسه :

ــ وما حدث فى السينما ؟ ••

أردفت لخجله الواضح :

ــ أدعنى اذن على النبيذ •• وأدعوك على فنجان شاى ••

ــ موافــق ! ••

وضع الجرسون أطباق الفول السودانى والجبن والزيتون والبطاطس المقلية ••

لاحظت اخفاقه فى متابعة كلماتها السريعة ، فقالت :

ــ يبدو أنك لا تجيد الفرنسية تماما ••

قــال :

ــ أجيدها بمهارة عربى ••

تابعت نظراته الى امتداد الأفق فى شاطىء الأطلسى . أمامه سلسلة ممتدة من الخلجــان الصغيرة ، والرؤوس الصخرية ، والجزر المتناثرة ..

فاجأته بالسؤال :

— ماذا تدرس ؟

— لغة عربيــة ..

— فى نواكشــوط ؟ ..

— طبعــا ..

— أقصد .. هل هناك تلاميذ من السود ؟ ..

— السود هنا .. أليسوا عربا ؟ ! ..

— نحن امتداد لافريقيا السوداء لا افريقيا العربيــة .. أقصد السنغال ومالى لا الجزائر والمغرب ! ..

— ما أعرفه أن موريتانيا بلد عربى ..

— معلومة خاطئــة ..

قهره التحير ، فقال :

ــ فلنكتف بأحاديث الحب ! ••

ــ ٥ ــ

لم تعد علاقتهما مثلما بدأت • كانت تقبله ، وتحتضنه ، وترافقه فى رحلات الى الضـــواحى القريبة من نواكشـــوط ، ويقضيان الأمسيات فى مرحبا والفندق الافريقى ، ويجلسان ــ بالساعات ــ على شاطىء الأطلسى ، ويخوضـــان فى أحاديث لا تنتهى • رسمت له صورة ــ استهوته ــ للحياة فى قريتهـــا المطلة على نهر السنغال • يستقل أهلها القوارب الى الضفـــة المقابلة ، يتجولون فى القرى الموريتانية ، يبيعون ويشترون • قدمت بالقارب فى اليوم التالى لحصولها على الشهادة المتوسطة، ولم تعد • اكتفت بزيارات متباعدة الى قريتها فى الضفة الأخرى• كان خياله يرسم الصـــور التى تحكيها • يستزيد ويســـأل ويقـــارن ••

مع ذلك ، فان علاقتهما لم تعد كما كانت • داخلها توتر ، يبين عن نفسه فى المجـــادلة لأقل سبب ، وارتفاع صوتها ، واصرارها أن تعبر عن وجهة نظرها كاملة • وكانت تسرف فى تدخين السجائر ، ويغلب العنف على تصرفاتها ••

وقال لها :

ـ أعلمك العربية •• وتعلمينني الفرنسية ؟ ••

وشى صوتها بعصبية :

ـ أعلمك الفرنسية •• أما العربية فلا أحتاج اليها ! ••

ـ تحتاجين اليها فى التعامل ••

ـ الجميع هنا يتحدثون الفرنسية •• فلا مشكلة ! ••

أخلى وجهه للسؤال :

ـ حتى العرب ؟ ! ••

ـ رئيسى فى العمل عربى •• يتحدث بالعربية ، ولا أجيد الا الفرنسية •• اذا استدعانى سبقنى اليه مترجم ! ••

ـ ٦ ـ

أصاخ سمعه لمصدر الصوت • هو صوتها • وكانت تناديه باسمه • أطل من النافذة المفتوحة على فناء ترابى صغير ••

كانت تقف بالقرب من الباب • ارتدت ثوبا مبهرج الألوان ، يغطى جسمها كله • حتى الرأس أحاطته بالثوب ، فلم يعد الا وجهها الذى أجادت تزويقه ••

ـ أين أنت ؟ ••

ـ مشـغول ! ••

وسألها وهما يسيران فى السوق :

ـ كيف عرفت العنوان ؟ ••

ـ فى المدرسـة ••

ـ بماذا قدمت نفسك ؟ ••

ـ هل تسىء صداقتى الى سمعتك ؟ ••

ـ بالعكس •• أنا أسأل فقط ! ••

ـ الناظر من أسرة سنغالية جارة ••

ـ لم تخبرينى بهذا من قبل ••

ـ لم أكن أتصور أن الموضوع يهمك ••

استطردت :

ـ تحدثنا فى موضـوعات كثيرة ، وان لم نتحـدث فى كل شىء ! ••

واصلا السير الى حى ذى طابع افريقى • تزاحمت أمام البيوت الواطئة ، وفى أفنيتها ، أشجار الموز بأوراقها العريضة ، والأزياء دات الألوان والتكوينات الفاقعة • وبدا الجميـع

سود البشرة : المـارة ، والمطلون من النوافذ ، والجالســون على الأبواب ..

قالت لنظرته المتسائلة :

ـ هنا حى يكاد يقتصر على الأفارقة من قبـائل البولار والولوف والسوننكى ..

أهمل غرابة الأسماء التى سمعها للمرة الأولى :

ـ أليس لأسرتك خيمـة ؟ ..

قـالت :

ـ الخيام يفضـل سكناها العرب .. أما نحن فنسـكن البيوت ! ..

ـ وأنت .. ألست عربيـة ؟ .. أقصـد .. ألسـت موريتانية ؟ ..

ـ كما ترى (وأشارت الى وجهها) فانى افريقية ..

ـ موريتانية أم افريقية ؟ ..

علا صـوتها :

ـ موريتانية افريقية ! ..

دفعت الباب الخشبى الموارب ، وسبقته فى ارتقاء السلم الى الطابق الثانى • فتحت الباب على صالة واسعة ، أحاطت بكنبة طويلة ومقاعد من البامبو ، ودولاب زجاجى صفت بداخله تماثيل صغيرة وأيقونات ، وعلى الجدار آقنعة افريقية ، وسجادة مستطيلة بها رسم للعذراء تحتضن المسيح فى مهده ••

دهمه احســـاس لم يشعر به من قبـــل • ليس ملل أيامه الأولى ، ولا الضيق من توترها الدائم ، وتخبط انفعالاتها ، وتصرفاتها المحيرة ، ولا حتى عناء البحث عن مفردات الفرنسية••

مطت شفتها السفلى فبدت كالمتدلية :

ـ كنت سأدعوك الى الاقامة هنا ••

ـ أين ؟ ••

ـ فى الحى الافريقى •• هنا أفضل من مساكن المدرسين وخيام العرب ••

وهو يهز رأسه :

ـ لا أتصور أنى سأعود ثانية ••

ـ لمـــاذا ؟ ••

قال بسرعة :

ـ المكان غريب ..

ـ ظننته أفضل من التستر بظلام السينما ، أو مواجهة النظرات الفضولية ونحن فى الفندق ..

فتش عن الكلمات ، ثم كرر القول :

ـ المكان غريب ! ..

تحرك ليؤكد رغبته فى الانصراف . مالت بجسمها عليه . وضعت يدها حول رأسه . اجتذبته نحوها ، ودنت بشفتيها من فمه . ألف تغير تصرفاتها ، فظل فى مكانه . صرخ لخدش أظافرها وجهه ، ولاستغاثة أذنه بين أسنانها . تعالت ـ من حيث لا يعرف ـ موسيقى صاخبة ، تخالطها دقات طبول ، وتراقصت الأقنعة فى الجدار . أطلقت من أفواهها ألسنة كاللهب ، واختفت العذراء والمسيح . افترش مساحة السجادة المعلقة مخلوق لا هو من البشر ولا من الحيوان ، وان لم يستغرب ملامحه ..

أغمض عينيه ، يتقى المرئيات ، والقسوة ، فلم يلحظ اندفاع النصل الحاد فى صدره ..

نصف الدنيا ١٩٩٢/٨/٩

الفنـــــدق

– ١ –

حين غادر الفندق ، كان الصباح فى أوله . سار فى شارع جمال عبد الناصر الى نهاينه ، ثم مال ناحية السوق الكبيرة . تنقل بين الأكشاك الخشبية ، صفت أمامها صناديق الخضروات والفاكهة ، يتأمل ويناقش ويسأل . يقول البائع : هـذا هو الثمـن الذى أراه .. فما الثمـن الذى تراه انت ؟ تبـدأ عملية الفصـال . ربما يبدأ الثمن بثلاثمائة أوقيـة ، وينتهى بتسعين . لا تقتصر الأسـئلة على ما ينوى شراءه . يتحـدث ويتحدث ، لمجرد الدردشة ، الأخذ والعطاء ، التعرف الى حياة يراها للمرة الأولى . أذهلته الصـدور العارية للافريقيات . جال بعينى الدهشـة فيما حوله . انشغل الجميـع بالتقليب والتذوق والبيع والشراء . ثم لم يعد المشهد يصدم عينيه ..

قال له السفير :

ـ هذا الفندق هو أصلح الأماكن للاقامة فى نواكشوط ..

وهو يغلق حقيبة يده :

ـ هل أظل مدة عملى فيه ؟ ..

ابتسم السفير فى محاولة لاظهار الود :

ـ لا بالطبع .. انها اقامة مؤقتة حتى يرحل السكرتير السابق ..

أهمل ـ منذ اليوم الأول ـ هواجس الاقامة بمفرده . لا تشغله مسئولية أعداد الطعام ولا غسيل الثياب أو كيها ، ولا أى شىء مما تتطلبه الحياة بلا أسرة . يقسم وقته بين السفارة والفندق والتجول فى الشوارع المسفلتة القليلة ، والسوق الافريقى ، والصحراء الممتدة الى نهايات الأفق . يحس باختلاف الحياة فى أختلاط الأسود والأبيض ، ورجال الطوارق الملثمين ، والمسواك ، والحراتين فى أكواخ الصفيح المنعزلة ، والبيوت ذات الطابق الواحد ، والخيام ، وفيلات الفرنسيين بضاحية الأكسر ، والملحفة ، والدراعة ، والزى الأوروبى ، والتحدث بالفرنسية حتى مع عابرى الطريق ، والرمال المحملة بسخونة النهار ، ونسائم الليل فى شاطىء

الأطلسى ، والرتابة ، والملل • وربما استقل سيارة — بمفرده ، أو مع موظفى السفارة — الى نهر السنغال • يقضـون اليوم فى المدن المقابلة ، ويعودون آخر النهار ••

— ٢ —

لما أراد استبدال أوقيات موريتانية بدولارات ، همس له موظف الاستعلامات :

— قد يغيرها المدير بسعر أعلى ••

كان قد تعرف الى العاملين فى الفندق • المدير الفرنسى وزوجته يتحدثان بالفرنسية وحدها ، والمساعد الأسبانى يحاول التحدث بالعربية ، والعمال من السنغال أو مالى ، فيمـا عدا الشاب الفرنسى باستعلامات الفندق ••

عرف اللجوء الى المدير ، والى مساعده ، فيما يواجهـه من مشكلات • وعندما اعتذر الشاب الفرنسى عن صعود فتاة سنغالية — برسالة — الى غرفته ، تدخل المدير ، وأذن لها ••

لم يكن المدير يستقر فى غرفته الزجاجيـة • يقف وراء البار ، يجول فى قاعة الطعام ، يجالس النزلاء فى أحاديث هامسة ، أو يصحبهم الى حجراتهم ، فيظل داخلها بالساعات • سـاعده

قوامه الضئيل وخطواته القافزة ، والحيوية الملتمعة فى عينيه ، رغم سنى عمره المتقدمة • وكان قد خصص لنفسه حجرة بالطابق الأول ، بينما أقامت المرأة فى حجرة بالطابق الثانى ، تلاصقها حجرة المساعد الأسبانى ••

كانت المرأة والمساعد يهبطان الى « اللوبى » فى الضحى ، يسبقهما الزوج بساعتين أو ثلاث • يتطلع اليهما ــ حيث يجلس أو يقف ــ بنظرات صامتة • اذا اصطدمت النظرات ، هز رأسه بتحية مرتبكة ••

لاحظ عثمان السنغالى تساؤل عينيه :

ــ لا تشغل نفسك •• فالسيدة تعانى تقدم السن ! ••

أعاد النظر ــ بتلقائية ــ الى الرجل والمرأة فى وقفتهما أمام البار • بدت ــ الى طول قامته ــ ضئيلة • ترتدى بنطلونا فاقع الحمرة ، وبلوزة صيفية تشف عن « الستيان » • وكان يرتدى بنطلونا يعلو الركبتين ، وقميصا ضيقا يفز الشعر من فتحته الواسعة ••

أضاف عثمان وهو يمسح المائدة أمامه :

ــ انها تحاول سرقة الزمن •• وهو يسلى وقته ! ••

لمــا اعتذر عثمان عن قبول « البقشيش » عرف ان اهتمامه به لسبب غــير النقود • هل لأنه أشفق عليــه وســط خليط الأجانب ، أو لأنهما التقيا فى المسجد الصغير أول السوق ؟ •• مع تعدد العمال والجرسونات ، اقتصرت خدمته على عثمان •• شاب فى حوالى الخامسة والثلاثين • يبحث عنه ــ بعينيه ــ أو يناديه • يحادثه ــ أحيانا ــ بلا مائــدة ولا طعام • يهمس عثمان بكلماته ، ويمضى لنداء ، أو لأداء خدمة ، ويعود ••

قــال :

ــ من صاحب الفندق ؟ ••

ــ موريتانى من بوتليميت •• فى الجنوب ••

ــ ولمــاذا لا يديره بنفسه ؟ ••

أنهى عثمان مسح المــائدة ، وســار الى نداء مائــدة مجــاورة ••

ــ ٣ ــ

ألف السهر ــ فى معظم الليــالى ــ مع صخب الموسيقى والغناء بقاعة الطعام • تزاح الموائد الى أقصى القاعــة ، وتتخذ الفرقة الموسيقية موضعا فى الواجهــة ، بينما يملأ الشــباب

القاعة بالرقص • جميعهم فرنسيون • وربما زاد عليهم نزلاء الفندق من الجنسيات الأخرى ..

سحب كرسيا ، وجلس بالقرب من المدخل ..

طلب زجاجة شمبانيا ..

همس عثمان بالدهشة :

– هل تشرب ؟ ..

– أفعل مثلهم ..

فاجأه الرجل بفصحى واضحة :

– ولا تزر وازرة وزر أخرى ! ..

– ٤ –

طالت وقفته على شاطىء المحيط الأطلسى • النسائم المنعشة تخالف السخونة التى تتمطى – أثناء النهار – فى الشوارع الخالية ..

تنبه لتوقف سيارة بالقرب منه • نزل منها شبحا رجل وامرأة • لم يتبين ملامحهما فى الظلمة المتكاثفة ، وان عرف – فى اقترابهما – صوت المساعد الأسبانى • وصلت اليه فى سيرهما

البطىء بالقرب منه ، عبارات مدغمة ، تبين فيها أسـماء الزوج والمساعد والمرأة والفندق • غابت الكلمات بغيابهما • تأكد من طبيعة علاقتهما فى احاطة الرجل للمرأة بسـاعديه ، وميلهـا برأسها على صدره ، ومشيتهما المتمهلة ••

— ٥ —

أقعده الفضول على مائدة فى مواجهة السلم المفضى الى الطابق العلوى • ينزل الزوج فى البداية • يقف وراء البـار ، يراقب العمال ، يعلو صوته بالأوامر ، يبدى الملاحظات ، يحتسى كوبا كبيرا من القهوة بالحليب ، يتبعه بسيجار كوبى يأخذ منه بضعة أنفاس ، ثم يطفئه فى رخامة البار ، ويدسـه فى جيب قميصه العلوى • يتنبه لوقع الأقـدام النازلة من السـلم • يغلبه توتر واضح لمرأى الزوجة ، يتبعها المساعد • يتبـادلان التحية بهز الرأس ، وتظل عيناه فى متابعتهما للمرأة والرجل ، الى قاعة الطعام ، أو خارج الفندق • يعلو صوته ــ فى اللحظات التالية . دائما ــ بعبارة غاضبة لخطـأ أحد العمال ••

غلبه الفضول ، فأطال المتابعة • كانت الزوجة تقف فى الباب الخارجى ، تحيى المساعد قبل أن ينطلق بسيارته ••

فاجأه عثمان فوق رأسه :

ـ يستطيع أن ينهى الأمر بالمواجهة ! ..

دارى ارتباكه بضحكة خافتة :

ـ هل يعرف بالعلاقة ؟ ..

ـ كأنه يسعد بالألم ..

ـ وهمـا ..

قاطعـه :

ـ طال غياب رد الفعل .. فلم يعودا يأبهان ! ..

- ٦ -

مع أن غالبية المترددين على الغرف كانوا من الأجانب ـ يقفون أو يجلسون ، فى الأغلب ، أمام البار المواجه للمدخل ـ فانه كان مألوفا جلوس الموريتانيين فى قاعة الطعام ، أو «اللوبى» السابح فى أضـواء خافتة . ولكن الرجل فى جلسـته ـ ذلك الصباح ـ على مقعد بجوار السلم المفضى الى أعلى ، كان يجول بعينيه فى المكان ، ويتأكد من اتساق « الدراعة » على جسمه ، ويحرك أصابعه فى الشبشب المفتوح ، وينادى على الجرسونات . يناقشهم ، ويشـير بسبابته الى السقف والجـدران والأثاث والرواد الجالسين والواقفين ..

- ٧ -

بدا الرجـل ـ بجسمه الممتلىء ، وجلسـته التى يكاد لا يغيرها ، وما يشبه مغالبة النوم ـ وحيدا ومنعزلا عن الحياة فى الفنـدق . وحين يستيقظ ـ فى الليـل ـ على أصـوات الموسيقى والغناء ، يهبط من حجرته بالطابق الأول الى جانب البار . يتأمل الصخب دون أن يشارك فيه . يلاحظ اعاقتـه لحركة العمال بين البار والقاعة ، فيزيد من التصاقه بالحائط ، ويغالب النوم بفرك عينيه ..

- ٨ -

ذات صباح ، وضع المساعد الأسبانى حقائبه داخل تاكسى، ومضى ..

همس عثمان :

ـ انه يعود الى بلاده ..

أردف للتساؤل فى عينيه :

ـ سافرت السيدة فى الليل ..

ثم وهو يهز رأسـه :

ـ ربما الى فرنسا أو أسبانيا ..

مضى النهـار دون أن ينزل الزوج من غرفته بالطـابق الأول . فى عودته الى الفندق من وقفته على شاطىء المحيط ، رأى الزوج وصاحب الفندق يخلوان الى أوراق كثيرة ، على مائدة بقاعة الطعام . يتهامسان ، وان علا صوتهما ــ أحيانا ــ بما لم يتبينه ..

ــ ٩ ــ

وهو ينزل من السلم الى اللوبى ، فوجىء بأن صـاحب الفندق قد تخلى عن الموضع الذى لم يبدله بجوار السـلم . لم يكن هو الرجل الذى ألف رؤيته فى الأيام الفائتـة ، راح يتنقل فى اللوبى وقاعة الطعام وغرفة المدير ودورات الميـاه ، بقدر ما يسعفه جسمه الممتلىء . يلتقط أسئلة النزلاء ومطالبهم، فيرد عليها ، أو ينقلها الى العمال . يخاطب العمـال ــ للمرة الأولى ــ بلغة عربية ، تداخلها لكنة مغربية واضحة ..

قال له الرجل وهو يدخل قاعة الطعام :

ــ هل تريد حجرة تطل على الشارع الرئيسى ..

أضاف للتساؤل فى عينيه :

ــ خلت أمس حجرتان .. وهـذا الصباح خلت حجرة ثالثـة ! ..

وقال عثمان وهو يمسح المـائدة أمامه :

ـ تسلم الرجل فندقه هذا الصباح ..

تشاغل بالنظر الى مبنى البريد المواجه . وكانت القاعة خالية الا من مجموعــة موريتانيين ، التفوا حــول مائــدتين متصلتين ، وعلت أصواتهم . وفى زاوية بعيدة ، جلس الشاب الفرنسى . يتناول طعامه .

الهلال — مارس ١٩٩٣

ســـور اللواتيـــا

- ١ -

رأيتك ــ للمرة الأولى ــ على شاطىء الكورنيش • كنت تعانين فى اقناع الصغير بألا يخلى يده من يدك • ملامحك لا تشى بانك أمه • شدتنى اليك عينان بنيتا اللون ، تضيئان فى الوجه الباسم ، أكد ملامحه اطار صنعته العباءة السوداء ، التف بها الجسم كله ••

تصورت ان الرجل رفض دخولى البوابة العتيقة ، لأنى كنت أتبعك••يعرفك ــ لابد ــ وتعرفينه • المكان المغلق يفرض المعاشرة بين أبنائه • حاولت الدخول ثانية • تظاهرت بالتطلع الى فاترينة « السوبر ماركت » المجاور للبوابة ، ثم وطأت المدخل الترابى ، كأنى أتعرف الى المكان فى تلقائية • اتفضت لصوت الرجل • هو الرجل العجوز نفسه • مع انى لم أتبين

الكلمات ، فان الرعشة الغاضبة فى صـوته ، وشت بما كان يقوله • عدت ، وسـط التطـلع الصـامت لشـبان يرتدون الدشداشة ، ويضعون الكمة فوق رءوسهم ، ويرتدون النعال ••

– ٢ –

فوجئت لمـا عاب سليمان الخروصى ما حدث :

ـ هذا حى اللواتيا ، ولا أحد يدخله ••

أعرفه منذ عملت فى المؤسسة • يكبرنى بسنتين أو ثلاث • ذكرياته عن أعوام تعلمه فى القاهرة ، خلقت جسرا من المودة بينى وبينه • تتناقش فى كل ما يفد الى خواطرنا ، وربما سرنا بعد الغروب على كورنيش مطرح ، أو أمضينا نهـار الجمعـة على شاطىء مسقط • ودعـانى ـ يوما ـ الى بيته فى دار سيت ، فأكلت البريانى والسالونا والحلوى العمانية ••

قلت وأنا أتابع حركة الدوران المفضى الى خمسة شوارع :

ـ لمـاذا ؟ ••

ـ سؤال تأخر طويـلا •• لكنهم يقيمون فى الحى منذ عشرات الأعوام ، ويرفضون أن يدخل اليه آحد ••

استعدت التسمية :

ـ قلت : اللواتيـا ؟ ! ••

وهو يداعب الشرشابة المتدلية من دشداشته :

ـ انهم شيعة من حيدر أباد ••

استطرد موضحـا :

ـ ليسوا أجانب •• انهم عمانيون ••

هززت رأسي بالدهشة :

ـ لماذا يغلقون عليهم حيهم ؟ ••

ـ ذلك ما ألفه الجميع منذ سنوات بعيدة ••

ـ ٣ ـ

لم أعد الى محـاولة الدخول ثانية • اكتفى بالتمشى على الكورنيش • أرقب الباب الكبير ، والامتدادات وراءه ، الى حيث تتداخل الظلمـة حتى تختفى المرئيـات تماما • أتوقع أن تظهرى فجأة ، مثلما ظهرت واختفيت من قبل • الثوب الأسود ترتديه كل النساء ، فأكتفى ـ من بعد ـ بالتطلع الى الوجوه ذات الملامح المتشابهة ، وان ظلت العينان الشديدتا الصفـاء فى ذاكرتى • توقعى كان اليقين انى سألمحك فى لحظـة قادمة ، تجتازين الظلمـة المتكاثفة الى تداخل الظـلام بالضـوء فى

الساحة القريبة من الشارع • تميلين ناحية مطرح ، أو الى الطريق العام فى اتجـاه روى • لم أكن أعددت نفسى للحظـة اللقاء : كيف اتصرف ؟•• وماذا أقول ؟•• هل اتبع خطواتك؟•• هل اقترب لتسمعى ما أقول ؟ •• وهل أبدأ بالتحيـة ، أو أطلب موعدا ؟ •• وماذا لو انك واجهت تصرفى بما لا أتوقعه ؟ ••

— ٤ —

تحولت أيامى الى ترقب للحظات الانتظار أمام البوابـة الهائلة • أغادر مكتبى فى دار سيت ، فلا أطيل البقاء فى البيت • تملكنى ما يشبه الاصرار أو الجنون • هاتان العينان الجميلتان، لابد أن التقى بهما ، لا تشغلنى النظرات المسترببة لثبات موضعى فى مواجهة الباب العتيق ••

اعتدت جلسة الشيخ ، بالدشداشة الحائلة اللون والكمة فى رأسه على المصطبة الحجرية يمين البـاب • يدلى رجليـه الحافيتين ، امتصهما العمر ، فبدتا كعصـاتين الى جانب عصاته الخشبية المستندة الى الحائط ••

لم تكن عيناه الضيقتان تشيان بحياة •• لكن نظراته كانت تتجه — بعفوية — الى أية حـركة تقترب من الباب • تهمـل الوجوه المـألوفة ، وتعلو بالصـياح على الغرباء ، والشـبان

يتساندون على الجدران ، أو يقفون فى حلقات داخل البهو الفسيح ، يكتفون بالابتسامة المعتذرة عن صرخات العجوز وشتائمه . فى وقفتى على الرصيف المقابل لا يصلنى اصداء ما يحدث ، وان كنت استعيد الكلمات التى بادرنى بها الرجل وأنا أخطو داخل البهو ..

— ٥ —

تكررت وقفتى بالقرب من سوق السمك ، قبالة البوابة الضخمة تماما . ربما تمشيت حتى انحناءة الكورنيش الى مسقط . فى المواجهة : البيوت البيضاء ، ذات النوافذ الخشبية الصغيرة ، والقلعة الساكنة أعلى الجبل الخلفى ، والدكاكين المتناثرة أسفل البيوت ، والسور الفاصل بين اتجاهى الطريق ، والمسجد الصغير ، والسلم ذى الدرجات الثمانى ، والسور الحجرى المطل على الميناء ، والنوارس المحومة فى امتدادات الشاطىء ..

أغادر بيتى عندما تصبح الشمس قرصا أحمر فى مياه الخليج . أقف بالسيارة فى الموقف الملاصق لفندق الكورنيش . أعبر الطريق الى الناحية المقابلة . تتصاعد الى أنفى رائحة البقايا فى نهار البيع بسوق السمك . أتوقف فى الناحية المقابلة للباب العتيق . أهيىء نفسى لاطالة النظر وطرد الملل . لا تشغلنى

حركة الطريق ولا الخطوات المتمشية على الكورنيش ولا صفافير البواخر فى الميناء القريب ، أو صرير اطارات السيارات فى انحناءة الطريق الى روى ..

حين رأيتك للمرة الأولى ، كنت تغادرين الحى المغلق ، فى اللحظات التى ألزمت نفسى بالوقوف فيها ، أو ربما بعدها بقليل . لا يختلف الزى ولا القوام أو السحنة فى كل من أراهن من بنات الحى المغلق . الاختلاف فى العينين البنيتين الشديدتى الصفاء ، شعاعهما الغريب شدنى ، تملكنى ، أحسست بانى مسوق اليه ، لا أتحول ..

- ٦ -

عرفت التردد على مسجد الرسول الأعظم ، على بعد أمتار من الباب الكبير . أصعد الدرجات الحجرية . التقط من الطبق الصغير ، أمام المدخل ، قطعة حصا ، أضعها أمامى أثناء الصلاة ، أضغط عليها بجبهتى عند السجود . أزيد فى ايلام نفسى — ربما — لكى اتقرب منك أكثر . قلدت عند الصلاة فى الفجر بالبسملة ، وزيادة القنوت فى الركعة الثانية من صلاة الجمعة . أميل ، بعد الصلاة ، الى المكتبة . أقرأ فى فقه الشيعة ، ونهج البلاغة ، والمراجعات ، وأقرأ آيات الله ، وعن آل البيت وورثة النبى والحق الالهى فى الخلافة .. ألفت عبارات

لم أكن سمعتها من قبل : على ولى الله ، وباب مدينة العلم ، ومأتم عاشــوراء ، والحيدرية ، والحسينية ، والامام المنتظر .. وشاركت فى المولد النبوى وموالد الحسين والحسن والسيدة فاطمة ومولد الامام الحــاضر ، وفى موكب العاشر من المحرم : البكاء والنحيب واللطم والضرب على الصدر واذلال النفس.. أتعبتنى المناقشات حول الفارق بين السنة والشيعة والخوارج والأباضية . قررت أن أستمع وأشاهد وأحتفظ بالأســئلة ، أكتمها فى نفسى ..

وقال لى سليمان الخروصى ، ونحن نغادر مسجد الزواوى:

ــ أذان الشيعة يقول : حى على خير العمل .. وأذان الفجر عند السنة يقول : الصلاة خير من النوم ..

أضــاف ضاحكا :

ــ لو ان كلا منا أخذ عبــارة الآخر ، لصــار الأذان واحــدا ..

- ٧ -

فاجأنى سليمان الخروصى بالقول :

ــ أنت الآن تصلى فى مسجد الشيعة ..

لم يدر فى بالى انه سيعرف بترددى على المسجد . تنبهت

الى انه يرتفع عن الأرض كثيرا ، يعلو بابه الخارجى الى ما يساوى طابقين ، فيستطيع قادة السيارات والمشاة رؤية المترددين عليه ..

— ٨ —

رأيت الصغير يلعب مع أطفال فى مثل سنه . استندت الى سور الكورنيش ، انتظر فراغه من اللعب . اذا دخل أحد البيوت ، فلابد أنك تقيمين فيه . اشترى — بعد فراغه من اللعب — ما لم اتبينه من « السوبر ماركت » الملاصق للباب الكبير . ثم دخل من الباب ، فابتلعته الظلمة تماما ..

— ٩ —

قال لى سليمان الخروصى :

— لنفترض انك عثرت عليها .. ثم ماذا ؟ . .

غالبت ترددى :

— سأتقدم لخطبتها ..

— سنى يخطب لوتية ؟ ! ..

— كلانا مسلم ..

ـ الخلاف أعمق مما تتصور ..

قلت فى اصرار :

ـ لا أتصور ان هناك خلافا ..

- ١٠ -

لم أعرف كيف ولا متى حدث ما حدث .. لكن الظلمة المتكاثفة شفت . تسلل اليها ضوء النهار من سوق مطرح الخلفى ، لما هوت المعاول على السور الفاصل بين الحى والسوق . عرفت ان محافظ العاصمة أمر بانهاء عزلة الحى . أعلن السماح للجميع بدخول الباب العتيق ، والتنقل والعبور الى سوق مطرح ..

ربما حدث الأمرعند الصباح . كنت قد غادرت موضعى ليلة أمس . العجوز فى جلسته الدائمة ، والشبان يتبادلون الأحاديث والنكات ،والأضواء الخافتة المنبعثة من النوافذ وعلى أبواب البيوت ، تريق على المكان هدوءا ساجيا ..

فوجئت أن الشيخ ليس فى مجلسه . العشرات يدخلون الباب العتيق ، ويخرجون منه . ناس غير هؤلاء الذين اعتدت رؤيتهم . يرتدون الوزار والكمة والبشت والمسرة ، يتبادلون

المناقشات والقفشات ، ويعلو الصخب الضاحك • الظلمة الشفيفة فى امتدادات المكان ، لا يبددها الضوء المراق من الطريق ، ولا من الممر الفاصل بين البيوت الى سوق مطرح ، أو النوافذ التى أضاءت فى عز النهار ••

أهملت السؤال ان كان الدخول الى الساحة المستطيلة متاحا •• لكن العشرات كانوا يدخلون ، دون أن يعترضهم أحد ، أو يتابعهم بنظرة متسائلة ، أو يعلو صوته : من تريد ••

مرقت مع الداخلين • طالعتنى البيوت القصيرة المتساندة ، والطرقات الضيقة ، والجدران المغسولة بالتراب ، وروائح البخور والسالونا والعطن ••

ذوت الصورة التى ثبتت فى بالى ، أو أنها تبددت • الظلمة الشفيفة تلقى بظلالها على أرض الطريق وجدران البيوت ••

كان الجميع مشغولين بالأحاديث ، أو باختصار الطريق بين الكورنيش والسوق ، فتطلعت الى النوافذ المفتوحة والمواربة والمغلقة • تمعنت فى الوجوه المطلة من النوافذ ،

أبحث عن الوجه الذى دخت لكى أراه ثانية . لم يبد انهم لاحظوا حيرتى ولا انهم تطلعوا الى النوافذ أصلا . ترددت فى مواصلة السير عبر الممر الضيق الى السوق . أعدت النظر الى نافذة علويـــة ، وتلفت حولى . أيقنت انى كنت المقصـــود بنظرتك الباسمة ، المشجعة ..

الأهــرام ١٨/٢/١٩٩٤

الأرض تثمر ملحا

- ١ -

حين سلم عليه الشيخ الوهيبى ، ومضى فى اتجاه الشمال أعاد التلفت فى المكان حوله . الصحراء والجبال والزراعات القليلة المتناثرة ، وقصر « صحار » الهائل تحيط به أسوار عالية ، أحس بغربة قاسية ، ورفض التصور أنه يستطيع الاقامة فى هذا المكان ..

كان الغروب يلملم بقايا الأصيل ، والتمع الأفق بحمرة قانية ، وسكنت رؤوس الأشجار ، وتمطى الهدوء ، يعمقه صوت ارتطام أمواج البحر بالشاطىء القريب ..

الأسوار تحيط بالمزرعة ، تعزلها عن امتدادات الحقول ، على جانبى الطريق السريع ..

قال الوهيبى :

ـ حقول الشيخ سرور الى نهايـة العلامـة الأرضـية البعيدة •• أزرع فيها ما تتفق عليه من خضروات ••

وأشار الى المزرعة :

ـ أما هذه ، فاستراحة للشيخ •• تقتصر على أشجـار الفاكهة والزهور ••

ثم ـ وهو يتهيأ للعودة ـ :

ـ اختر ما تشاء لزراعته ••

لمـا أصبحت سيارة الوهيبى نقطة فى الأفق ، دخل البيت السابق التجهيز • أقرب الى الكشك الخشبى : له باب صغير ، يفضى ـ على اليمين ـ الى حجـرة الاسـتقبال ، والمطبخ • تتوسط الحجرة ترابيزة سـفرة ، حولها أربعـة مقاعد • وعلى اليسار ، حجرة النوم ، بها سرير معدنى ، الى جانبـه مكتب صغير ، ومقعد • وافترش المساحة الفارغة حصير من البلاستيك الملون ••

ـ ٢ ـ

لا يدرى كيف قضى ليلته • تمازج فى داخله الاحسـاس بالغربة والوحشة والقلق والخوف • حاول طمأنة نفسه بالخفير النائم على باب المزرعة • راعته التهاويل والأشكال التى صنعها

ظل المصباح الخافت على السقف والجدران . أضاء المصباح الرئيسى ، فانداح الضوء فى الحجرة ، وتلاشت التكوينات والظلال ..

عرف من الشيخ الوهيبى انه هو المسئول عن المزرعة ، وامتدادات الحقول حولها . دشداشته العمانية ، واسمه ، يناقضان سحنته الآسيوية . لعله من ايران أو بنجلاديش أو قبائل البلوش . قامته الفارعة ، المبسوطة ، تتسق مع خطواته السريعة . يضطر الى ملاحقته فى سيره على ضفاف الحقول ، أو بين أشجار المزرعة ..

لم يحاول السؤال عن صاحب الأرض ، وان أخبره الوهيبى انه يشغل وظيفة مهمة فى الديوان الأميرى بأبو ظبى . اشترى ــ مثل الكثيرين من شيوخ بلاده ــ أرضا فى السلطنة، بالقرب من الحدود ، يزرعونها بالخضر والفاكهة ، ويقضون فى البيت ، أو القصر ، داخلها ، أيام الأجازات ..

- ٣ -

خصص للمزرعة ساعتين كل يوم ، يتولى بنفسه تقليم الأشجار ، والعناية بالزهور . ربما استعان بواحد من العمال الهنود الثلاثة ، لكنس الممرات المفروشة بالحصى الصغيرة ، وجمع أوراق الأشجار المتساقطة ، ورش رؤوس الأشجار بالمياه،

وتنظيف واجهة البيت الصغير ، المغلق ، فى نهاية المزرعة ، وممر السيراميك المفضى اليه ..

يقضى بقية اليوم ، حتى الغروب ، فى مشاركة العمال الثلاثة أعمال المزرعة ، أو يتابعهم . يلجأ الى كل ما تعلمه . يكتب الملاحظات ، ويراجع كتبا أتى بها من القاهرة ..

انتزع الكثير من النخلات ، لايجاد مسافة كافية بين كل نخلة وأخرى . وزرع البصل والثوم والطماطم والفجل والفلفل والبطاطس والزهرة والقلقاس ..

اعتاد النزول الى مسقط ، مرة كل أسبوع . يستوقف سيارة « ونيت » قادمة من الامارات ، أو يستقل الأوتوبيس من داخل المدينة .. يحشر نفسه فى الركاب ، معظمهم من الهنود والبنغاليين . يعانى الزحام والعرق ورائحة السالونا . ينزل فى بداية الطريق الى الحمرية . يتمشى فى روى ومطرح . يشترى الطعام والتقاوى ومبيدات الآفات والأسمدة وقطع الغيار ، ويتأمل الفاترينات . ربما دخل حفلة العاشرة صباحا فى سينما (عمان بلازا) أو (النصر) ، فان كان اليوم جمعة ، أدى الصلاة فى جامع السلطان قابوس ..

شاهد فى سوق السيب ، آلة للتسميد بالرش ، بدلا من استخدامه فى التربة . حفظ سعرها ، وعرض شرائها على الوهيبى . استمهله يومين ، ثم أبلغه بالموافقة ..

اشترى أجهزة جديدة لتلقيح أشجار النخيل ، وقطف الثمار • وأضاف الى المزرعة أشجار البرتقال والسفرجل والرمان ••

فى الليل ، يغلبه الملل • يلقى السلام على الخفير العمانى ، فى جلسته أمام باب المزرعة • يقطع الأرضية الترابية ، الفاصلة بين البيت وسور المزرعة • يعبر الطريق السريع الى الناحية المقابلة • يجلس ــ فى ضوء القمر ــ مع العمال الهنود الثلاثة ، أمام الكوخ الخشبى ، أول الحقل • يسأل ، ويجيبون بلهجة خليجية ، تداخلها كلمات أردية • ربما استعاد الجملة لكى يستطيع الفهم • أفزعته رواية الهندى « رياسات » عن سقوط أحد مرافقيه فى المركب الذى تسللوا به الى شاطئ دبى • ابتلعته ــ أمامهم ــ أسماك القرش • تعالى صراخه ، وتقافز فوق الأمواج الصاخبة بأعلى ما عنده ، حتى جرته الأسماك بأفواهها الى القاع ، وانتشرت بقعة الدم على المياه ••

— ٤ —

تنبه ــ فى جلسته مع العمال الثلاثة ــ الى صوت الوهيبى • ظل الرجل داخل سيارته (التويوتا) الصغيرة • شدد عليه بألا يغادر المكان طيلة اليوم التالى ، ربما قدم الشيخ سرور لزيارة المزرعة ••

كانت هـذه أول مرة يزور فيها الشيخ سرور مزرعـة (صحار) . حدثه الوهيبى والعمال الهنود عن مزارعه الكثيرة فى دبى وأبو ظبى والعين والفجيرة ، ونفوذه الهائل فى الامارات ، أو فى السلطنة . أجهد خياله فى رسم صورة الشيخ ، حتى اطمأن الى الملامح التى ظن أنه سيعرفه بها . نزل من السيارة الفارهة ، امرأتان وثلاثة رجال ، بدوا جميعا فى سن الشباب . يرتدى الرجال (دشداشـة) ، تشبه الجلبـاب ، وتخلو من شرشابة الدشداشة العمانية ، ووضعوا على رؤوسهم (الغترة) بدلا من المسرة . أما السيدتان ، فتلبسان رداء صيفيا بسيطا ، بما يدل ـ وملامح الوجهين ـ على أنهما ليستا من الخليج .. تصـور أنهم ضيوف الشيخ ، قدموا لقضاء الاجازة معه . عبروا الطرقة الترابية ، ودخلوا المزرعة ، دون أن يشغلهم التلفت ناحية البيت الخشبى ، ولا الواقفين على جانبى الطرقة ، وهو واحد منهم . فتح الخفـير باب المزرعة . وتبع الوهيبى الداخلين بخطوات مهرولة :

ـ لا تتركوا أماكنكم حتى ينصرف الشيخ سرور ! ..

عرف أن الشيخ كان واحدا من الرجال الثلاثة ، وان لم يعرف من هو ..

لزم مكانه ، يخمن ملاحظـات الشيخ فيما رآه داخـل

المزرعة ، يطرد التوتر بتبادل العبارات التافهة مع العمال الهنود. ثم علا صوت الوهيبى ، يسبق الرجال الثلاثة والسيدتين الى خارج المزرعة ..

— ٥ —

صحا على صـوت دقات عنيفـة . زوى عينيه يتأمـل الطـارق ..

قال الوهيبى :

ـ أنت تتأخر فى النوم .. الساعة الآن السابعة ..

قال بلهجة معتذرة :

ـ عواء الذئاب أيقظنى الليل بطوله ..

تلكأت نظرته على الشاب الهندى خلف الرجل . فى حوالى الخامسة والعشرين . يرتدى قميصـا وبنطلونا . ودس قدميه فى شبشب مفتوح ..

تابع الوهيبى اتجاه عينيه :

ـ هذا جنجا .. جاء ليساعدك فى العمل ..

أضاف لبحلقته الداهشة :

ـ جنجا ليس عاملا زراعيا .. انه مهندس ..

ـ كنت قد طلبت عاملين للمساعدة ..

علا صوت الرجل ، فأدرك أن الشاب لا يعرف العربية :

ـ وفر له مكانا فى البيت ! ..

همس :

ـ مستحيل .. فالبيت ضيق ! ..

قال الوهيبى :

ـ انه مهندس .. ولا يستطيع الاقامة فى كوخ العمال ..

أردف بلهجة حاسـمة :

ـ فلينم .. ولو فى المطبخ ! ..

- ٦ -

أذهلته المفاجأة ، عندما قابل الشاب الهندى حديثه اليه بالانجليزية ، بهزة من رأسـه . لم يكن يعرف من الأردية سوى مفردات وجملا قصيرة . العمال الهنود يجيدون العربية ، لطول اقامتهم فى السلطنة . هل حصـل على الشهادة الجامعية بلغـة بلاده ؟ وهل هو مهنـدس زراعى بالفعل ؟ وكيف وافق على المرتب الضئيل ، والاقامة فى الردهـة الضيقة ، الخاليـة من المكيف ، أو حتى المروحة ؟ ! ..

نادى على العامل راجيف • قرر أن يكون العمال مترجمين له ، ينقلون أوامره الى الشاب ، وينقلون كلمات الشاب اليه • لاحظ أن الشـاب يجيد تقليده فى كل شىء • فى السـير بين المزروعات ، وفى تفحص التقاوى ، وفى تبين الآفات • حتى طريقة اصدار أوامره الى العمال • كان يقف على رأس حقل الطماطم ، لمـا فاجأه الشاب بأنه يتصرف بها ••

اعتاد اللبان الأحمر ، يلوكه فى فمه ، يصنع بقعة من اللون القـانى ، عرى جسـده الا من وزار يغطى أسـفل بطنـه ، التمـاع بشرته بزيت نفاذ الرائحـة ، وقوفه فى المطبخ ، يعد السالونا ، والبريانى ، وما لا يستطيع معرفته من الأطعمـة ، تمدده فى الردهة على ظهره ، وقد فرد ذراعيه كالمصلوب ••

كانا يتحدثان بالاشارة ، أو يستعين بأحد العمال الثلاثة فى الترجمـة ••

– ٧ –

غالب النوم ، لمـا اقتحم الحجرة صوت موتور الميـاه • يفتحه ويغلقه بنفسه • اذا أراد العمال تشغيله ، نادوا عليـه • نفض رأسـه ، واندفع بقدمين حافيتين الى الناحية المقابلة ••

كانت المياه تتدفق داخل الحقول ، والهنود الأربعة يتابعون ما يحـدث ..

صـرخ :

ـ من أدار الموتور ؟ ..

قال الشاب بهدوء :

ـ أنـا ..

ـ من أذن لك ؟ ..

ـ الشيخ الوهيبى طالبنى أن أقلدك فيما تفعل ..

ـ ليس فى ماكينة المياه ..

ـ أنا أجيد الآن تشغيلها تماما ..

ـ للرى أوقاته ..

ـ كنت سأغلقهـا بعـد قليـل .. أردت أن أتأكـد مما تعلمت ! ..

ـ لا تعد الى ذلك ثانية ! ..

قال الشاب دون أن يجاوز هدوءه :

ـ طالبنى الشيخ الوهيبى أن أجتهد فى التعلم ! ..

— ٨ —

التمعت عينا الوهيبى الخضراوين بما يشبه الغضب :

ـ لماذا أمرت العمال بردم البئر ؟ ! ..

خمن أن جنجا هو الذى أخبره . العمال يكتفون بتنفيذ الأوامر . جنجا يسأل ، ويناقش ، ويبدى الرأى المخالف ..

قال :

ـ زاد سحب المياه الجوفية العذبة .. فزحفت مياه البحر القريب الى داخل الأرض ..

استطرد بلهجة تطمين :

ـ الأفلاج وسيلة رى عمانية قديمة .. وقد لجأت اليها ..

— ٩ —

لم يعد يطيقه . الشاب يخفى وراء هدوئه عقلا حويطا ، وميلا الى التآمر . غاب عنه هدفه ، وان تيقن أنه يعد لما لا يدركه . هل ينوى افساد العمل ، فينسب اليه الشيخ ما يحدث ؟ وهل يعرف العمال الثلاثة ما ينتويه الشاب ، ويخفونه عنه ؟ وهل أتى بأمر الشيخ سرور ، أو أن الوهيبى هو الذى أتى به ؟ ..

وقال له ذات غروب :

ـ لا تفعل الا ما آمرك به ! ..

ـ أصادف بعض المشكلات التى تحتاج للتصرف ..

ـ آنت تقيم معى فى نفس البيت ..

ـ قد تكون مشكلات تافهة ..

قطع الهواء بظهر يده :

ـ لا تشغل بالك .. فهذا عملى ! .

وعلا صـوته :

ـ خذ ما أعرفه .. ولا تسرقه ! ..

لم يتركه الشاب ، حتى فى أوقات اختلائه بنفسه . يقف على باب الحجرة . بجانبه أحد العمال الثلاثة ، يسأل ، ويجيب عليه . وكتب فى آخر رسائله الى أبيه : تضايقنى هزة الرأس ، التى يقابل بها جنجا كلماتى . لا أدرى ان كان يوافق أم يرفض ؟ ! . ربما أصاب بالعدوى ، فأهز رأسى ـ بلا مناسبة ـ مثله . لكن تقليده الذكى لما أفعله ، انصاته المتابع الى ما يترجمه له أحد العمال الثلاثة .. يدفعنى الى تعليمه كل ما تعلمته .

- ١٠ -

قال الوهيبى ، وهو يتأمل الشجرة الصغيرة :

ــ هذه أول مرة يزرع المانجو فى المزرعة ..

قال معجبا بما فعله :

ــ اشتريت التقاوى من السيب ، وطعمتها بالسماد المناسب ..

ــ سأخبر الشيخ سرور بما فعلت ، ليكافئك ! ..

استطرد كالمتذكر :

ــ اشرح الطريقة للشاب الهندى . اجعله يتعلم كل شىء ! ..

- ١١ -

كان الشيخ الوهيبى يغالب تردده . اعتذر عن دخول البيت الخشبى ــ مثلما فعل فى مرات سابقة ــ وعن قبول دعوته لشرب الشاى ..

اتجه ناحيته عبر الطرقة الترابية . أزمع حثه ليفضى بما عنده :

ـ أخبار غير ســارة ..

أطلق الرجل ضحكة عصبية :

ـ قد .. وقد ..

ـ كيــف ؟ ..

ـ الشيخ يرى أن المهندس الهندى يؤدى نفس عملك ، ويتناول نصف الأجر ..

قاوم الحشرجة فى صوته :

ـ ماذا تقصــد ؟ ..

ـ هل توافق على تقاضى راتبه ؟ ..

اقتحمت عيناه وجه الرجــل . لاحظ ـ للمرة الأولى ـ جرحا غائرا فى خده الأيمن . تذكر آخر رسائل أبيه : اشترينا الشقة ، فانتظم فى دفع الأقساط . كره ابتسامته ، وكتم هاجسا بأن يصرخ فيه ، أو يشتمه ، أو يضربه ..

ـ العادة أن يزيد المرتب ، ولا ينقص ! ..

فوت الرجل الملاحظة :

ـ كما ترى .. الشاب يؤدى نفس عملك ..

تلفت بتلقائية ، فى باب المزرعة المغلق ، وأوراق الأشجـار تطل من الأسوار ، والخفير العمـانى يسلم نفسـه لاغفاءة ، والحقول تغطيها الخضرة ، والهنود الأربعة أمام الكوخ الخشبى، مشغولون بالمتابعـة ، والسيارات تنطـلق بآخر ما عنـدها فى الطريق السريع ، وهدير أمواج البحر يعلو فى ارتطامه بالشاطىء، وراء القصر ..

ــ واذا رفضت ؟ ..

تظاهر الرجل بالحرج :

ــ أخبرنى الشيخ أن عقدك ينتهى بعد خمسـة وأربعين يومـا ..

قال بحدة لم يتوقعها فى نفسه :

ــ اذن .. أريد بقية أجرى .. والمكافأة ..

أضاف فى حدتـه :

ــ ربما عدت الى مصر قبل أسبوع ..

أهمل سـماع ما كان يقوله الرجل . عـاد خطوات الى الوراء . ثم مضى فى الطرقة الترابية ، ناحية البيت .

الأهـرام ١٩٩٣/٣/٢٦

النبــى عمــران

– ١ –

عندما عبرت الباب الكبير ، ومضيت فى مسقط ، أتفحص وجوه العابرين والجالسين على أبواب المحــال ، وأتفادى ــ ما أمكن ــ زحــام الشــوارع الضيقة ، كنت أبحث عنك . دسست « البروة » بين الخنجر والدشداشة ، وتهيأت للقائك . أسلمك البروة ، وأصحبك الى القاضى ، يقضى بيننا بالحق ..

تأكدت من غيابك عن الشوارع والمحال والنواصى البعيدة. خلفت جامع الخور الى باب المثاعيب . عيناى تمسحان كل ما تصادفانه . حتى النوافذ الصغيرة ، المقابلة للجبل ، أتوقع رؤيتك داخلهــا ، أو ربما تكون جالسا ــ كعادتك ــ للمسامرة والتعرف على الأحوال ، داخل أحد الأبواب . حتى المقــابر فى ارتفــاع الجبــل الترابى ، تأملت المشيعين ، فتأكدت من غيــابك ..

رووا لى فى مدينتى عن حرصك على المشاركة فى المناسبات: مرافقة السلطان فى رحلات الصيد ، مشاهدة سباقات الخيل والهجن ، حضور الأفراح ،السعى فى الجنازات ، متابعة مراسم الدفن منذ يتولى أكبر الأبناء بنفسه دفن أبيه ، حتى يهال التراب على اللحد ، فلا يميز الفارق بين لحد وآخر سوى اللحاد نفسه ..

بعد أن أصبحت فى مفترق طرق . على اليمين ، الطريق الملتوى المفضى الى مطرح . وعلى اليسار ، طريق سداب ، سرت خطوات الى الباب الصغير . تأملت العساكر والمارين . ثم واصلت طريقى ثانية الى الداخل ..

قلت للقاضى :

ـ لقد سطا رجال السيد المسافر على محصولى ..

أخلى ملامحه للمفاجأة :

ـ أى محصول ؟ .

قلت ويداى تعبران بامتدادهما :

ـ ليمون .. ملايين الحبات ..

اهتز القلم فى أصابعه :

ــ وهل يحتاج السيد المسافر الى السرقة ؟ ..

قــلت :

ــ ذلك ما فعله ..

مال برأسه ناحيتى :

ــ قلت ان رجاله هم الذين سرقوا محصولك ..

قــلت :

ــ لا يخطون خطوة بغير اذن منه ..

قال للكاتب المستند ــ بأوراقه ــ الى الجدار :

ــ هل السيد المسافر فى نزوى ؟ ..

قال الكاتب :

ــ ظل فى بيته الصحراوى حتى أول أمس .. ثم رحل ..

قال القــاضى :

ــ الى أين ؟ ..

قال الكاتب :

ــ ربما الى مسقط أو الى صــلالة .. أملاكه كثيرة فى مناطق السلطنة ..

قال القاضى متشككا :

ـ هل حصل على اذن بالمغادرة ؟ ..

قال الكاتب :

ـ معه تصريح دائم بالتنقل ..

أعاد القاضى سؤالى :

ـ على من ترفع دعواك .. السيد المسافر أو رجاله ؟..

قـلت :

ـ السيد المسافر ..

همس القاضى كأنه يغالب حرجا :

ـ انه رجل ذو نفوذ ..

علا صوتى فى اصرار :

ـ دعواى ضد السيد المسافر ..

ـ ٢ ـ

كانت « النوبة » قد تعالت فى قلعـة الميرانى . ظـلال الغروب تصاعدت أعلى البنايات وقلعـة الجـلالى المطلة على

البحر • لاحظ صـياد سـمك بالقرب من سـداب ، مشيتى المتباطئة • قال :

ــ اسرع يا رجل قبل أن يغلق الحراس الأبواب ••

سـأل الحـارس :

ــ لمـاذا تأخرت ؟ ••

قـلت :

ــ كنت أبحث عن السـيد المسـافر لأعطيـه بروة من القـاضى ••

أضفت متذكرا :

ــ معى فانوس ••

قال الحارس وهو يفتح الباب :

ــ ربما يكون قد سبقك الى الدخول ••

لم يمنعنى الظلام المتكاثف ــ الفانوس ذبالة بلا ضـوء حقيقى ــ من التطلع الى الرجال المستلقين ، بالازارات وحدها، خارج البيوت ، يفرون من حرارة الجو بالداخل • أتطلع الى النوافذ والأسطح والمتعرجات المفضية الى قلب المدينة ••

أجهدنى التعب • أحسست بتخاذل لم أقو على مغالبته •

صعدت ــ بصعوبة ــ الى الساحة الصغيرة أمام مسجد الخور.
خلعت النعلين ، ووضعتهما تحت رأسى . نظرت بعينين توشكان
على النوم ، الى قلعة الجلالى فى قمة الجبل ، وهمست لنفسى :
هل ينال المسافر جزاء فعلته ، فيصبح واحدا من نزلاء القلعة؟..

- ٣ -

طالعنى سور بهلا الطينى الطويل ، فأسرعت من خطواتى..

لم أكد أمضى فى السوق ، حتى رأيتك . قامتك الضئيلة ،
وخطواتك القافزة ، وعينيك الزرقاوين ، وشعرك الذى أجدت
صبغه . صرخت بأعلى صوتى ، وجريت نحوك . آلمنى التعثر
فى زحام السوق . لكننى واصلت الاندفاع ..

رفعت عينى فلم أجدك . قتلتنى الحسرة أو ما هو أقسى !
دفعت بيدى الواقفين والسائرين ، أصرخ باسمك ، وأتقدم ،
حتى صدمنى الخواء ــ آخر السوق ــ فى الجبال المتشابكة ،
العالية ..

أسلمت نفسى للبكاء فى ناحية الطريق الى نزوى ،
فاسترحت . حدثت نفسى بانى قادم الى بهلا لمعرفة أين أنت ،
وليس للعثور عليك . جئت الى الشيخ بأحاديث كراماته
وأعاجيب سحره . روى الناس انه نقل مسجدا فى بهلا ــ لخطيئة

لواط ارتكبت داخله ـ الى مدينة بعيدة • ورووا انه حول البشر العاصين الى حجارة باذن الله ••

قال الشيخ وهو يضيف الى المبخرة ، فيتضوع البخور الرائق فى الحجرة :

ـ ربما التمست من سراة السلطنة مساعدتك ••

قـلت :

ـ لا أريد سوى حقى ••

واجهنى بعينين ضيقتين :

ـ هل تثق بأن القاضى سينتصف الك •• ؟ !

قلت بلا تدبر :

ـ لمـاذا القضاء اذن ؟ ••

قاوم الشيخ تردده :

ـ نصيحتى أن تتركه لله يأخذ بحقك منه ••

أردف لاسكاتى :

ـ سأعوضك بروبيات فاعلى الخير ••

جاهدت لمجاوزة التهيب :

— ما يهمنى أن أقدم البروة للسيد المسافر ..

قـال :

— كيف وأنت لم تجده ؟ ..

قـلت :

— هو مختف .. لكنه موجود ..

نهض الشيخ من جلسته . أزاح الستارة خلفه ، ومضى الى الداخل . تناهى صوته فى حسم :

— انصرف لحال سبيلك .

— ٤ —

عكست وقفتى المحدقـة قلقا فى أعين الحراس وخـدم البيوت ، فآثرت الابتعاد . صحوت — متنبها — من غفوتى بين الأشجار المتشابكة المفضية الى خارج سـمائل . لأن السيارات فى السلطنة معدومة أو تكاد ، فقد بدا الرجل — بوقفته الى جانب السيارة ، ذات السائق الهندى — شخصية ذات شأن ..

أشفق لارتباكى ، وقال :

— تبحث عن السيد المسافر ؟ ..

ثم فى تأثر :

ـ عرفت ان رجاله أخذوا من محصولك ..

قـلت :

ـ لقد سرقوا كل المحصول ..

قال بصوته المتأثر :

ـ هل تأذن لنا .. فنساعدك على ظروفك القاسية ؟ ..

قـلت :

ـ ليتك تساعدنى فى الوصول الى السيد المسافر ..

وشى صـوته بتغير :

ـ لـماذا ؟ ..

قـلت :

ـ سلمنى القاضى البروة حتى يمثل أمامه ..

وهو يهز رأسـه :

ـ حتى اذا وصلت اليه .. قد يرفض الذهاب معك ..

قلت مستغربا :

ـ هل يرفض المثول أمام القاضى ؟ ! ..

داخلت صوت الرجل نبرة تأسف :

- ليتك تأذن لنا بمساعدتك ..

- ٥ -

نفى امام الجـامع الكبير فى المضيبى أن يكون لك فى المدينة بيت . يراك الناس فى الأسواق وفى الشـوارع وأمام الدكاكين .. ولكن أصدقاءك من سراة المضيبى يستضيفونك اذا أزمعت المبيت ..

سألت خدم القصور والبيوت الكبيرة ، بالعربيـة وبما تعلمته من الأردية . أكدوا انهم يعرفونك جيدا . عقود عملهم فى سلطنة مسقط وعمـان حررت بمعرفتـك . توصى بهم عند أصدقائك . تجالسهم أحيانا ، تسألهم عن أحوالهم . وربمـا اقتصرت الأحاديث على الانجليزية التى يجيدونها مثلك ..

سألنى بائع حلوى بسوق نزوى :

- هل يعرفك السيد المسافر ؟ ..

أضاف للدهشة فى وجهى :

- حاول محادثته .. فتنتهى المشكلة ..

قـلت :

ـ رأيته فى قلعـة جبرين •• كان يطل من نافـذة على الأبنية المتهدمة أمامها •• تقدمت تجاهه ، فمنعنى الحراس ••

وعلا صـوتى :

ـ ولكنه يعرف ان أعوانه استولوا على محصولى ••

واستطردت موضحا :

ـ انه لا يعرفنى •• وان كنت أعرفه جيدا ••

ـ ٦ ـ

حاصرنى التعب والسـأم• بدا العثور عليـك مستحيلا أو كالمستحيل • وقفت على شاطىء البحر فى صور ، ومضيت بين النخيل فى الرستاق ، وعانيت ضيق الطريق والتوائه الى قريات ، وعبرت الأفلاج ، وأجهدنى السير فى الصحراء بين ابرا وضنك ، وتعثرت فى جليد الجبل الأخضر ، وتسللت الى القصر الكبير فى صلالة • فتشت فى أركانه • نظرت ـ من فوق ـ الى الطريق الترابى الممتد الى اليمن ، والى ساحل البحر فى الناحية المقابلة • فتشت حتى بين مشاهدى « الناروز » فى لوى • الثيران تتناطح ، وصيحات التشجيع تعلو فى الحلقـة الواسعة ، وترددت على الصـالحين فى مناطق الداخل ، وفى

الجنوب ، وتأملت المشاركين فى رقصـــات الرزحة والوهابيـــة والهبوت والمدار والدان والربوبة ..

مضيت ــ فى السويق ــ بين الجبـــال التى تحد امتداد الجنوب ، والقلاع والحصون والنخيل وقوارب الصيد وغازلى الشباك ، وعلى الرمال الى ساحل البحر . استلقيت ــ مجهدا ــ فى ظل المراكب المتناثرة ..

لا أدرى من أين أتى الرجل ، ولا متى وقف فوق رأسى. يرتدى الدشداشة والمسرة ، ويتمنطق بالخنجر ، وان بدت سحنته غير مألوفة ..

قال بلهجة متوددة :

ــ حدثنى الناس بأمر قضيتك ..

وخالط تودده استنكار :

ــ هل تتصور ان السيد المسافر يقبل الذهـــاب الى القـــاضى ؟ ..

قـــلت :

ــ استدعاه القاضى ببروة .. وعليه أن يمتثل ..

تأكد فى صوته نبرة تهديد :

ـ السيد المسافر له صداقات •• ربما تمتد الى القاضى••

قلت وأنا أبتعد بعينى عن مواجهته :

ـ أقسم القاضى يمين الله •• وحقى واضح ••

عاد الى اللهجة المتوددة :

ـ قد يواجه ضغوطا تثنيه عن قسمه ••

جرت يدى ـ بعفوية ـ على الموضع بين الخنجر والدشداشة :

ـ بذلت الأعوام حتى أسلمه البروة ••

استطردت فيما يشبه الصراخ :

ـ لن أهدأ حتى يقف السيد المسافر الى جانبى أمام القاضى ••

- ٧ -

استوقفنى قول الرجل ان النبى عمران يصل طول قامته الى عشرين مترا • لم يشغلنى الحديث فى بدايته ، ولا أوليته انتباهى • كان قد مضى زمان طويل على قدومى الى ظفار • سألت وفتشت وتنقلت بين المراعى والوديان والجبال والنخيل وأشجار النارجيل وأشجار اللبان • أمرنى حراس الحدود فى

ريسوت بالتوقف ، فعدت حزينا • تجدد الأمل فى داخلى أكثر من مرة ، لما أكدت الروايات أنك تملك الكثير من أراضى المنطقة • لا يفوقك فيما تملك سوى السلطان نفسه ••

قلت لأتأكد :

ـ طول قامته عشرون مترا ؟ ! ••

قال الرجل :

ـ ضريحه فى صلالة بطول قامته ••

أردف فى تأكيد :

ـ عاش حياته فى زمان العمالقة ••

ـ ٨ ـ

اقتربت من الضريح متهيبا • سمعت عن كرامات النبى عمران ومعجزاته ، فخشيت المثول بين يديه • طارد خصومه ـ فى زمانه ـ فقضى عليهم • اقتص للحق والخير • ساند من احتمى به • قيل ان من لاذوا به نالوا الشفاء من المرض باذن الله ، والنصفة من الظلم ، واستردوا الحقوق الضائعة • روى أنه ظهر ـ أحيانا ـ لمن احتاجوا اليه ، طويلا كأنه النخلة ، عريض الكتفين كأنه عملاق ، هادىء الملامح والطبع والنبرة ، ويصغى

الى متحدثه باشفاق • وكان يغادر ضريحه ــ فى بعض الأمسيات ــ يلقى بظله العالى على الطرقات والأبنية ، لا يتنبه الناس حتى يكون قد مضى ــ بخطواته الهائلة ــ الى بعيد ••

لزمت الضريح ، فلم أعد أغادره • الأنبياء يحيون وان واراهم التراب • رويت له حكايتى معك • القضية من بداياتها • سرقة المحصول ، لجوئى الى القاضى ، تسلمى البروة ، ضياع عمرى فى البحث عنك ••

صار النبى المعظم عمران هو الأمل فى أن ألتقى بك • لم يعد يشغلنى نوم ولا طعام ولا شراب • جلستى لا تتغير بالقرب من الضريح • لا أرى الزائرين ولا طالبى البرء والشفاعة • تتواصل الأيام بتلاوة القرآن والأدعية والابتهالات ، والترقب • يتحرك النبى المعظم فى مرقده ، يزيح الغطاء الأخضر ، وينفذ من الفتحة آخر الضريح • يسألنى ، فأحكى له • يجيد الانصات ــ كالعادة ــ ويأمر ، فيعاد حقى المسلوب : التقى بك ، فأسلمك البروة ، وأدعوك الى مرافقتى • كرامة النبى المعظم عمران تمنعك من أن ترفض أو تعتذر ، أو تحاول الاختفاء • تقف بجانبى أمام القاضى فلا تقوى على الانكار ولا المراوغة • يسألنى ويسألك • يميز بين حقى ، وما تلجأ اليه ، فينتصف لى •

فهـــرس

صـــدر من هذه السلسلة :

● الرجل المناســب	(قصــص)	فتحى غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصــص)	عبد الرحمن فهمى	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصــص)	ابو المعاطى ابو النجا	٣
● بالأمس حلمت بك	(قصــص)	بهــاء طــاهر	٤
● رباعيـــات	(قصص)	شــكرى عيــاد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبدالغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصــص)	جمــال الغيطانى	٧
● رشــق السكين	(اقاصيص)	محمــد المخزنجى	٨
● وعلى الأرض السلام	(قصص)	فاروق خورشــيد	٩
● الأشــواق والأسى	(رواية)	عبد الحكيم قاســم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● ان تنحدر الشمس	(قصص)	ســهر توفيــق	١٢
● لا يسقنى وحدى	(رواية)	ســعد مكاوى	١٣
● كهف الأخبار	(قصص)	شــكرى عيــاد	١٤
● محطة السكة الحديد	(قصص)	ادوار الخراط	١٥
● حصــار القلعة	(م شعرية)	محمد ابراهيم ابو سنه	١٦
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقى	١٧

- أربعة فصول شتاء (قصص) محفوظ عبد الرحمن ١٨
- أنا الملك جئت (قصص) بهاء طاهر ١٩
- تاريخ حياة صنم (قصص) عبد الرحمن فهمي ٢٠
- الوداع : تاج من العشب (قصص) عبده جبير ٢١
- النجوم العالية (أقاصيص) محمود الورداني ٢٢
- قلوب خالية (رواية) عبد الرحمن الشرقاوي ٢٣
- الشجرة والعصافير (قصص) ابراهيم عبد المجيد ٢٤
- عطشان يا صبايا (قصص) سليمان فياض ٢٥
- طرف من خبر الآخرة (رواية) عبد الحكيم قاسم ٢٦
- طعم القرنفل (قصص) جار النبي الحلو ٢٧
- السهر الأسود (رواية) شفيق مقار ٢٨
- تسلق الجدار الأملس (رواية) حسني عبد الفضيل ٢٩
- احتضار قط عجوز (قصص) محمد المنسي قنديل ٣٠
- رحلة الليل (قصص) عبد الله خيرت ٣١
- حبات النفتالين (رواية) عالية ممدوح ٣٢
- أرض لا تنبت الزهور (مسرحية) محمود دياب ٣٣
- الخوف (قصص) عبد الفتاح الجمل ٣٤
- ما أجملنا (مسرحيتان) محفوظ عبد الرحمن ٣٥
- لم يعد الضحك ممكنا (قصص) يوسف القعيد ٣٦
- جبال الشام (قصص) فاروق خورشيد ٣٧
- الحنان الصيفي (قصص) أحمد الشيخ ٣٨

● يوسف والرداء	(قصص)	ابراهيم اصـــلان	٣٦
● ســالة لبنى	(قصص)	يحيى عبد الله	٤٠
● عكس الريح	(قصص)	يوسف ابو رية	٤١
● هـــل	(قصص)	محمـــد جـــبريل	٤٢
● عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشـــور	٤٣
● الطـــائر والنهر	(قصص)	ءائد خصـــباك	٤٤
● زهـــر الليمون	(قصص)	علاء الديب	٤٥
● الطـــواحين	(قصص)	امين ريـــان	٤٦
● رائحة البحر	(رواية)	ســـامى فريد	٤٧
● حضرة صاحب الدولة	(مسرحية)	عاصف الغمرى	٤٨
● اسباب للكى بالنار	(قصص)	خيرى شلبى	٤٩
● السين والطلسم	(قصص شعرى)	بدر الديب	٥٠
● ايام الانسان السبعة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٥١
● الملاك الأبيض	(قصص)	محمد رفزاف	٥٢
● هذا ما كان	(قصص)	محمد البساطى	٥٣
● الغرف الأخرى	(رواية)	جبرا ابراهيم جبرا	٥٤
● اغنية حب حزينة	(قصص)	طلعت فهمى	٥٥
● انكسار الحروف	(قصص)	ربيع الصبروت	٥٦
● أخبار الدراويش	(رواية)	عبد الوهاب الأسوانى	٥٧
● النيـــل والغضـــب	(قصص)	فتحى عبد الفتاح	٥٨
● الشىء	(رواية)	نهاد شريف	٥٩

● عرس الفجر	(قصص)	يوسف أبو رية	٨٠
● حكى الترايا وحكى السرايا	(مسرحية)	ممدوح عدوان	٨١
● من دفتر العشق والغربة	(قصص)	جمال الغيطانى	٨٢
● البحر الرمادى	(قصص)	أحمد الشيخ	٨٣
● بستان الأزبكية	(قصص)	محمد عبد السلام العمرى	٨٤
● لحس العتب	(رواية)	خيرى شلبى	٨٥
● احاديث جانبية	(قصص)	جميل عطية ابراهيم	٨٦
● رجل فى القلعة	(مسرحية)	أبو العلا السلاموني	٨٧
● مجرى العيون	(قصص)	سعيد الكفراوى	٨٨
● الكرز	(قصص)	ليلى الاربيني	٨٩
● ساعات الكبرياء	(قصص)	ادوار الخراط	٩٠
● سالومى	(مسرحية)	محمد سلماوى	٩١
● غزو الأرانب	(قصص)	نبيل عبد الحميد	٩٢
● ام الشعور	(قصص)	حسام فخر	٩٣
● العودة من داخل الراس	(قصص)	عبد الفتاح رزق	٩٤
● بحيرة المساء	(قصص)	ابراهيم أصلان	٩٥
● قراءة فى جريدة الصباح	(قصص)	محمد سليمان	٩٦
● قبلة الريح	(رواية)	نعيم عطية	٩٧
● الفارس	(م . شعرية)	احمد سويلم	٩٨
● بقايا العمر	(قصص)	فتحى أبو رفيعة	٩٩
● الزائر	(مسرحية)	أحمد الحوتى	١٠٠
● شدو البلابل والكبرياء	(قصص)	فؤاد قنديل	١٠١

العنوان	النوع	المؤلف	العدد
● كوبرى التاريخ	(قصص)	محمد محمود عبد الرازق	١٠٢
● فى الظل والشمس	(قصص)	محمود الوردانى	١٠٣
● طقوس بشرية	(قصص)	رضا البهات	١٠٤
● اللمس الخفيف	(قصص)	احمد النشار	١٠٥
● بقع الضلب	(قصص)	عبد المنعم الباز	١٠٦
● ديوان البقر	(مسرحية)	محمد أبو العلا السلاموني	١٠٧
● غوص مدينة	(قصص)	مصطفى الاسمر	١٠٨
● طارق ليل الظلمات	(قصص)	محمد حافظ رجب	١٠٩
● حكاية الأم تفاحة	(رواية)	عبد المنعم عبد القادر	١١٠
● صندوق الدنيا	(قصص)	محمد عبد الرحمن المر	١١١
● اخناتون	(م . شعرية)	شوقى خميس	١١٢
● حديث الضد	(قصص)	محمود حنفى	١١٣
● عندما ترتفع الهارمونيكا	(مسرحية)	فريد أبو سعدة	١١٤
● امراة ورجل	(ن . قصصية)	موزية رشد	١١٥
● صالحة	(رواية)	عبد العزيز مشرى	١١٦
● هكذاتكلمت الاحجار	(رواية)	سمير عبد الباقى	١١٧
● سوق العيد	(قصص)	محمد جبريل	١١٨

الأعداد القادمة :

العنوان	النوع	المؤلف
● ظلل النار	(قصص)	يوسف ابو رية
● منعلق من عرقوبه	(مسرحية)	رأفت الدويرى
● للروح غناها	(قصص)	سيد الوكيل
● اظافر صغيرة جدا	(قصص)	فهد المتيق
● ظما البحر	(قصص)	ربيع الصبروت
● دولة ايوب	(م . شعرية)	محمد حسيب القاضى

الأعداد الممتازة القادمة :

● المعذبون فى الأرض	(رواية)	طه حسين
● قنطرة الذى كفر	(رواية)	مصطفى مشرفة
● خيوط العنكبوت	(رواية)	ابراهيم عبدالقادر المازنى
● ابراهيم الثانى	(رواية)	ابراهيم عبدالقادر المازنى
● نائب عزرائيل	(رواية)	يوسف السباعى
● فساد الأمكنة	(رواية)	صبرى موسى
● قصص مختارة	(قصص)	يوسف ادريس
● اغنية الرياح الأربع	(دراما شعرية)	على محمود طه
● اضلاع الصحراء	(قصص	ادوار الخراط

تطلب كتب هذه السلسلة من :

- **باعة الصحف** ● **مكتبات الهيئة**
- **معارض الكتاب بداخل مصر والخارج**
- **المعرض الدائم للكتاب**
- **مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم**

رقم الايداع ١٩٩٧/٥٧١٧
I.S.B.N. 977 — 01 — 5205 — 6 الترقيم الدولى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب